العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

إذاعة الكفيل

سلسلة من حلقات برامج إذاعة الكفيل

صوت المرأة المسلمة

درر الأخلاق

إعداد

نوارس فائق

كربلاء المقدسة
FM-95.3MHZ
النجف الأشرف
FM-103.9MHZ
ذي قار
FM-95.3MHZ
ميسان
FM-98.3MHZ
radio@alkafeel.net

الكتاب: درر الأخلاق.
الإعداد: نوارس فائق.
المونتاج الإذاعي: نور البغدادي.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة/ شعبة إذاعة الكفيل.
التصميم: علاء سعيد الأسدي.
الإخراج الطباعي: أمل نصير السعداوي.
التدقيق اللغوي: موفق هاشم الرحال.
المطبعة: مطبعة دار الكفيل.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ: ٢٠٠٠.
ربيع الثاني ١٤٣٧هـ - كانون الثاني ٢٠١٦م.

مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين وسلامٌ على أصحابه البررة المنتجبين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أما بعد:

لا يخفى أنَّنا لازلنا بحاجة إلى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو نشر المفاهيم الأخلاقية والتربوية، وترسيخ المفاهيم الإيمانية التي تضمنتها رسالة الإسلام لبناء الفرد بناءاً فعلياً حقيقياً؛ ليكون ٱنطلاقة سليمة لبناء ذلك الكيان الإنساني الشامخ الذي ماهو إلا اللبنة الأولى لبناء مجتمع إسلامي راسخ البنيان، عتيد المراسي، لذا ومساهمةً في ذلك جاءت برامج إذاعة الكفيل صوت المرأة المسلمة كسبيل للوصول إلى ذلك، وقد أخذت هذه البرامج طريقها إلى أسماع الكثيرين عبر أثيرها وعبر شبكة الإنترنت العالمية صوتاً، ولأجل تعميم الفائدة إرتأت الإذاعة إيصال برامجها كتابياً إلى أيدي الذين لم يسعفهم الوقت لسماعها وذلك بطباعة بعض من برامجها وإصدارها كراريساً.

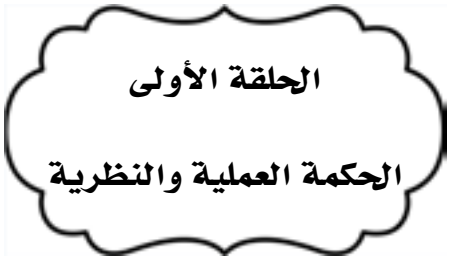
الحلقة الأولى
الحكمة العملية والنظرية

الحقيقة والأخلاق

قال رسول الإنسانية نبينا محمدﷺ: ((**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)). يجب الإلتفات قبل التحدّث عن خلود الأخلاق إلى أن الفلاسفة يقولون بخلود الحقيقة والعلم والأخلاق، ولكن لن نتكلم عن خلود الحقيقة، إلا أننا سنثير عدة تساؤلات وهي: لماذا فتحوا للأخلاق والحقيقة حسابين؟ وما الفرق بين الأصول الأخلاقية وسائر الأصول التي نسمّيها حقيقة؟

وهناك ما يقال به «خلود الأصول العلمية» حيث يجب أن يشمل الأصول الأخلاقية أيضاً، ولكن الحق أن يفصل بين الفئتين:

يجب أن نلتفت في البدء إلى مسئلة صغيرة ليعلم أن بحث خلود الأخلاق يهمنا كثيراً، وأنه مرتبط بخلود الإسلام، وتلك المسألة هي أن الأخلاق سلسلة تعليمات، ومن يرى التعاليم الأخلاقية غير ثابتة يرى التعاليم الإسلامية كذلك، وهذا ينسخ كثيراً من الإسلام، ولتكامل الحقيقة صلة بالإسلام أيضاً، لكن صلة نسبية الأخلاق به أقوى منها، فلماذا فصلوا الأخلاق عن الحقيقة؟

الحقيقة أصل نظري، والأخلاق أصل عملي، فالحقيقة حكمة

نظرية، والأخلاق حكمة عملية. ولا يمكن لأصول الحكمة العملية أن تدخل حظيرة الحقيقة، لأن الحكمة النظرية تبيّن الحقائق الموجودة في الماضي والحاضر، فهي صورة الواقع على ما هو.

أما الحكمة العملية فمرتبطة بالإنسان، والبحث فيها مرتبطة بما يجب أن يفعله، فهي إنشاء. والحكمة النظرية خبر عن الواقع، والبحث فيها يتناول مطابقتها للواقع وعدمها، وثبات هذه المطابقة وتغيّرها.

وليس في الأخلاق خبر عن الواقع ولا مطابقة، وتناولت كتبنا العقلين العملي والنظري بعنوان «عقلي الإنسان» أو «قُوَّتَيْهِ»، لكنها لم تتناول التفاوت الأساسي بينهما تناولاً كافياً، مع أنها دلّت على بداية حسنة.

قوة العقل العملي والنظري

فقد بُحث العقلان بحثاً نفسي الطابع، فقيل في الإنسان قوّتان: العقل النظري والعقل العملي. والعقل النظري هو قوة في النفس تكشف بها عمّا هو خارج عنها، أما العقل العملي هو سلسلة إدراكات تدبر بها البدن، فهو مختص بطبيعة النفس، والعقل النظري مختص بما فوقها؛ ولذا كانوا يقولون: «للنفس كمالان: نظري، وعملي». والفلاسفة يرون

ماهية الإنسان وجوهره وكماله في العلم، خلافاً للعرفاء الذين لا يرون الكمال في العلم؛ لاعتقادهم بأن الإنسان الكامل هو الذي يبلغ الحقيقة، لا الذي يكشف عنها. وكانوا يقولون بشأن العقل العملي: «إنه يسعى لتدبير البدن أحسن تدبير بسلسلة أحكام تمكّنه من بلوغ الكمال»، ويرجع القدماء توازن البدن إلى الحرية؛ لأن النفس محتاجة إلى البدن، ولا تستطيع أن تبلغ الكمال النظري من دونه، ولهذا يجب أن تتعادل القوة، والقوة التي تقيّم هذا التعادل هي القوة العاملة.

«وإذا تعادلت القوة لم يقهر البدن النفس، وإنما يكون مقهوراً لها، ويكونوا يرون التوازن في خضوع البدن للنفس وقهرها له»، هذا ما قاله قدماؤنا.

وربما لم يبحث أحد الحكمتين النظرية والعملية أكثر من الشيخ الرئيس الحسين بن عبدالله بن سينا الفيلسوف الطبيب الفقيه الأديب، فقد قسّم الحكمة في الإلهيات من الشفاء على نظرية وعملية، وزادها تفصيلاً في المنطق من الشفاء، الشفاء من كتب الشيخ بالعربية وهو أربعة أقسام: المنطق، والرياضي، والطبيعي، والإلهيات.

وهذه المباحث القديمة مجتمعة بسّطت يد التحقيق في هذه المسألة، لكنها توفها حقها منه، حتى العقل العملي ما زال يشوبه الإبهام.

ويظهر من كلام لهم أن العقل العملي هو قوة إدراك النفس، يعنون أن لعقلنا إدراكين هما: إدراك العلوم النظرية، وإدراك العلوم العملية. ويستفاد من كلام آخر كلمة العقل مشتركة لفظاً في العقلين العملي والنظري، وأن العقل العملي ليس من سنخ (سنخ: اصل)

الإدراك فهو قوة عاملة لا قوة عالمة. فالعقلان العملي والنظري ليسا واضحين في كلامهم. ولا يعنينا كونهما قوتين أو قوة واحدة، ولا كون أحداهما قوة عالمة والآخر قوة عاملة، حتى إذا أطلق العقل في الصورة الأخيرة على العقل العملي كان من باب الإشتراك اللفظي، يعني أن العقل العملي ليس في الواقع من سنخ العقل العالم.

فالحكمة النظرية أو الحقيقة -على وفق التعبير هنا- معناها الأفكار الحقيقية التي هي الصورة الواقعية للأشياء، والأفكار العملية معناها الأفكار الإعتبارية، والأفكار الإعتبارية هي كل الأوامر والنواهي وكل ما يُطرح في علم الأصول.

وقد طُرحت في علم الأصول طرحاً أحسن من طرحها في كل ماعداه، وهو يرى الإعتبار فكرة حقيقية نطبقها ونعممها على أمر آخر، وليس للنفس أو العقل مثل هذه القدرة أن تبدع مفهوماً مثل باب الحقيقة أو المجاز.

الحلقة الثانية

تزكية النفس

هدف الإنسان الدنيوي

تزكية النفس هدف الرسالات الأسمى، قال الله سبحانه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[١].

هناك تساؤلات: من هو الإنسان؟ وما هو هدفه في الحياة؟ ولماذا يعمل؟ هذه الأسئلة وغيرها لابدّ للإنسان أن يطرحها على نفسه قبل فوات الأوان؛ فهو ما يلبث أن يطوي عمره سريعاً، فلا تسنح له فرصة العودة، وكم يكون ندم الإنسان شديداً عندما تمرّ سنين حياته بعد أن يمضيها في طريق مغلوط؛ فلا هو يستطيع أن يسترجعها ليعمل فيها صالحاً، ولا هو بقادر على أن يعتذر إلى ربّه، وقد تواترت النذر، وتمّت الحجّة، ولله الحجة البالغة على خلقه.

إنّنا لو طرحنا تلك التساؤلات المصيريّة على أنفسنا في وقت مبكّر، لأغنتنا عن مشاكل كثيرة، ولكن للأسف فإن هناك البعض من الناس لو وجّهت إليه تلك الأسئلة لانصرف فكره مباشرة إلى بيته وسيّارته وشهرته التي يحبها، وثروته التي يبتغيها، فتراه يجتهد في حياته من أجل أن يحصل على المال، ومن أجل أن يبني بيتاً واسعاً، أو يحصل على شهرة في المجتمع.

(١) الشمس ٩.

ولكن -عزيزتي القارئة- هذا الإنسان عندما يتعمّق في نفسه سيكتشف أنّ المال ليس هو هدف، فالمال إمّا أن يزول عنه، أو يزول هو عن المال، فما سيحمله الإنسان إلى قبره ليس إلاّ الكفن الذي هو زاد الميت، سواء كان غنياً أم فقيراً، على أنّ هذا الكفن لن ينفعه هو الآخر مادام سيتحوّل إلى تراب؛ فكأنّ المال يقول للإنسان: أنا معك إلى أن تبلغ الروح التراقي، وبعدها يودّع هذا المال الإنسان ليصبح للآخرين، الذين ربّما لا يترحّمون على الميّت الذي تركه.

وعلى هذا؛ فإنّ تصوّر الإنسان أنّ هدفه في الحياة هو جمع المال ونيل الشهرة.. وما إلى ذلك من الأمور المادّية يعتبر خطأً كبيراً، وهؤلاء الناس عادة ما تدركهم منيّتهم قبل أن يتحوّلوا إلى البيوت الجديدة التي بنوها. فكم من إنسان وإنسان بنوا بيوت وعمّروها ولكنّهم لم يوفّقوا لأن يعيشوا فيها، وحتى لو وفّقوا إلى ذلك فإنهم سوف لا يخلدون في هذه البيوت، كما يقول سبحانه: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾[1]. فلنعمل لأنفسنا كما يشير إلى ذلك ربنا عز وجل في قوله: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[2].

فنفس الإنسان هي التي تبقى معه، وهي التي تنتقل إلى القبر ثم

(١) النساء ٧٨.

(٢) المائدة ١٠٥.

إلى المحشر، فكلّما كانت هذه النفس طاهرة نقيّة كان الإنسان بخير ولن يذهب عمله سدىً، وإلاّ فإن عمله سوف يذهب أدراج الرياح. ولذلك؛ فإن الناس لا يعملون في الحقيقة لأنفسهم رغم أنّهم يتصوّرون ذلك، بل نراهم يعملون لبيوت يشيّدونها، أو لشهرة يحصلون عليها أو أنّنا نفكّر في أجسامنا، ولكن المشكلة هي أنّ هذه الأجسام مجرّد تلبس ثوب نلبسه ثم نخلعه لنرتدي ثوباً آخر.

هدفي أن أزكّي نفسي

هذا في حين أنّ القرآن الكريم يأمرنا أن نعمل لأنفسنا أولاً؛ فالنفس البشريّة هي كالحجر الكريم المغروس في حجر عادي، والإنسان بامكانه أن يصقل هذا الحجر ليستخرج ذلك الحجر النفيس. فاذا ما زكّى الإنسان نفسه سوف يكون بالتأكيد من المفلحين، بينما إذا دسّاها لا يكون إلاّ من الخائنين، كما يقول تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[1]، فيجدر بالإنسان أن يهذّب هذه النفس ويزكّيها، لكي لا يذهب عمره سدىً، كما ان تزكية النفس تزيد الصفات الحسنة. إنّك لو عملتِ من أجل تزكية نفسك، فانك تستطيعين أن تضيفي بين آونة وأخرى صفة حسنة إليها، لتنقص في المقابل صفة سيئة، وحينئذ

(١) الشمس (٩-١٠).

ستكونين من الناجحات، والإنسان الناجح هو الذي يصل إلى درجة الفلاح. ولا يغيب عنا أن رسالة الأنبياء في هذه الحياة هي أن يذكّروا الإنسان بهذه الحقيقة، وهي أن المال والأولاد وسائر مظاهر الحياة الدنيا لا تنفعه، وأنّ تزكية النفس هي الشيء الوحيد الذي من الممكن أن ينفعه.

وعندما يقول نبينا الأكرم محمدﷺ: ((**إنما بُعثت لاتمّم مكارم الأخلاق**))، فإن هذا يعني أنّ بعثتهﷺ لم تكن من أجل فتح البلدان، بل الهدف الحقيقي هو أن يذكّر الناس بضرورة بناء أنفسهم. وقد نجحﷺ بالفعل في بناء وتربية شخصيات عظيمة خالدة من مثل الإمام عليعليه السلام، وفاطمة الزهراءعليها السلام.

وهذا هو مضمون ما دعا به النبي إبراهيمعليه السلام ربه عزّ وجل بعدما شيّد ذلك البناء الشامخ المتمثل في الكعبة المشرفة، إذ قال: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1].

(١) البقرة ١٢٩.

الصلاة من تزكية النفس

إن الصلاة أيضاً أهم أساليب التزكية، بل من أهم أساليب تزكية النفس، وهي التي يقول عنها الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[1]، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾[2]؛ أي إنّ الهدف من الصلاة أن يرتفع الإنسان إلى مستوى ذكر الله، فينوّر قلبه بنور الله؛ لأن الصلاة بدون ذِكر، هي صلاة غير حقيقية، يقول القرآن الكريم: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[3].

فلنحاول أن نصلح صلاتنا، وأن نجعلها صلاة حقيقية؛ لكي نضمن بذلك أن تكون سائر أعمالنا صالحة أيضاً، فالإنسان لا يستطيع أن يكمل صلاته إلاّ بعد أن يكمل جميع أبعاد حياته؛ فلو كانت حياته مستقيمة لخشع قلبه، ولو أكل من الحلال لم يبقَ بينه وبين الله أي حجاب. تُرى لماذا نحن مستعدّون لأن نلهو ونلعب ولكنّنا غير مستعدين لأن نصلّي ولو لمدّة قصيرة؟ السبب في ذلك أنّنا قد ارتكبنا ذنوباً حجبتنا عن

(١) العنكبوت ٤٥.
(٢) طه ١٤.
(٣) المؤمنون (١-٢)

ذكر الله، وهذا كلّه من شأنه أن يؤثّر على صلاة الإنسان. وفي مقابل ذلك نرى أنّ الإنسان المهذّب الكامل الذي بنى حياته على أساس صحيح، هذا الإنسان يتقبل الله صلاته، ويحبّبها إليه، فتراه لا ينتقل من صلاة إلاّ ليؤدّي أخرى.

وبالإضافة إلى الصلاة، هناك الصوم قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1]. فالهدف من الصوم هو أيضاً أن يصل الإنسان إلى مستوى التقوى، وهكذا الحال بالنسبة إلى العبادات الأخرى.

زكّي نفسك بالتقوى والخشوع

التقوى هي: ملكة في قلب الإنسان، فهو مكلّف أن يتخذ من عباداته معراجاً إلى التقوى، وعلينا أن نفهم في هذا المجال هذا الهدف المقدّس من بعثة الأنبياء المتمثّلة في إيصال الإنسان إلى مكارم الأخلاق. فإذا كان – على سبيل المثال – الهدف من بنائك للمسجد، أو تأليفك للكتب، أو صعودك للمنبر، أو دراستك هدفاً دنيوياً، فانك سوف تزداد بُعداً عن الله. فكلّ هذه الممارسات يجب أن تتحوّل إلى غذاء لروح الإنسان؛ أي أن يصلح هذه النفس التي بين جنبيه والتي هي أعدى

(١) البقرة ١٨٣.

أعدائه. وعندما ندعو ربنا يجب أن لا يكون دعاؤنا مجرّد قلْقة لسان، فالدعاء من شأنه أن يرفع الإنسان إلى علّيين، فيحوّله إلى رجل لا يفصله عن الله تعالى شيء، ولا يعاني من أيّ مرض في قلبه. أما إذا قرأ الدعاء في حين أنّ الكبر والحسد والأنانيّة وسائر الصفات السيّئة ما تزال رانية على قلبه، فما فائدة دعائه؟

إنّ من علامات الإنسان المؤمن الخشوع، فلننظر إلى أنفسنا، ولنحاول أن نعرف هل فيها شيء من علامات الإنسان المؤمن. وفي هذا المجال يُروى انّ رجلاً قال لأبي ذر «رحمه الله»: ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمّرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب، قيل له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ قال: أما المُحسن فكالغائب يُقدم على أهله، وأما المُسيئ فكالآبق يُقدم على مولاه، قيل: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: أعرضوا أعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى، قال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: إنّ رحمة الله قريبة من المحسنين، فالقرآن هو مقياس، وميزان، وفرقان، ومن صفات المؤمنين أنّ قلوبهم تخشع إذا ذكر الله وإذا تليت عليهم آياته. فلننظر هل هذه الصفات موجودة فينا أم لا؟ ولنحاول أن نحصل ولو على صفة واحدة منها، ونكون ممّن قال عنهم ربنا عز وجل: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١]، فإن لم نستطع فلماذا الإدّعاء؟ ولماذا نجعل سعينا هباءً منثوراً، وعملنا بدون هدف؟!

لنزكّي أنفسنا

إنَّ هذه الأيام التي نعيشها ما هي إلاّ فرصة ومُهلة، ونحن لا نعرف متى سيحلّ أجلنا؛ فكثير هم الذين ذهبوا ولم يرجعوا، ونحن سنلحق بهم في يوم من الأيام، فلنعمل لأنفسنا ولو لساعة واحدة، من خلال تجسيد حقيقة الصلاة، والصيام، والأعمال العباديّة الأخرى.

وبناءً على كل ما مضى؛ فإن تزكية النفس هي الهدف الأول والأساسي لرسالات الله جل وعلا، لتتحوّل النفس بذلك إلى جوهرة ثمينة نقية، وتغدو قريبة من الله، وحينئذ يأتيها النداء: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٢] ويجب ان نعرف كيف نحقّق ثبات النفس؟

لقد نزلت رسالات السماء من أجل تزكية النفس البشرية وتنمية المواهب الخيّرة فيها، وهي -أي النفس- أعدى أعداء الإنسان، وأقرب أصدقائه في نفس الوقت؛ فهي أعدى أعدائه إذا كانت أمّارة بالسوء،

(١) الفرقان ٦٣.
(٢) الفجر (٢٧-٣٠).

ناهية عن الخير، مسارعة إلى الفساد، مسوّفة للتوبة.. وهي أقرب أصدقائه إذا كانت لوّامة له فيما يعمله، داعية للخير، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[١].

وقد يكون في هذه النفس البشريّة ثقل يرسيها، ويبقيها صامدة أمام هزّات الحياة، وتغيّرات الأحداث؛ أما إذا كانت قلقة مضطربة فانها ستهتزّ لأي سبب من الأسباب، وستكون مصداقاً للنفس الهلوعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٢]، ففي البأساء تغدو هذه النفس مستسلمة، جزوعةً، فاقدة للصبر، وعند الرخاء تسيطر عليها حالة الطغيان، والبطر، والاستكبار.

كيف يربّي الإنسان نفسه وكيف يزكّيها؟

سؤال يرتسم أمام الإنسان منذ نعومة أظفاره ومنذ بداية وعيه وهو والسؤال المطروح أمام كلّ واحد منّا وهو: كيف يربّي الإنسان نفسه وكيف يزكّيها؟ حتّى يسلّم النفس إلى بارئها، وقد تنسيه ضرورات الحياة وأحداثها ومظاهرها، هذا السؤال المهمّ، ولكنّ الصفعات القويّة

(١) القيامة (١-٢).
(٢) المعارج (١٩-٢١).

التي يتعرّض لها في حياته ما تلبث أن تهزّه من الأعماق، وتدعوه إلى طرح هذا السؤال مجدّداً على نفسه، وقبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ أن نذكر بأن ما يحتاج إليه الإنسان هو التذكرة إلى درجة أنّ هذه الكلمة استعملت في القرآن الكريم لأكثر من ثلاثمائة مرّة، كلّ ذلك للدلالة على أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع فينا عقولاً لا تكفي لتوجيهنا، وفطرة نقيّة من شأنها أن تربّينا، وجعل في أنفسنا واعظاً وزاجراً منها. ولكنّ غفلة الإنسان ونسيانه وجهله وارتباطه بحوادث الزمن، كل هذه الأمور تنسيه تلك الفطرة، وتحجبه عن ذلك العقل.

إنّ الفطرة لا تحتاج من أجل إستيقاظها إلاّ إلى التذكرة والتنبيه، وهي مستغنية عن التعليم والتوجيه من الخارج. فالشيء الذي ينفعها هو أن ينبّه الإنسان ذاتياً، وأن يصغي إلى الكلام ويذهب به بعيداً عن أجواء الحديث، ويفكّر فيه تفكيراً جدّياً باعتباره قضية حساسة مرتبطة به. إن الفطرة تعني أن المسؤول الأوّل والأخير عن تزكية الإنسان هو نفسه لا غيرها، فلا أحد في العالم يستطيع أن يزكّي الإنسان وينمّي مواهبه الخيّرة إلاّ الإنسان نفسه، وهذه هي سنّة الله تعالى في الحياة، وهي سنّة ثابتة لا يمكن لأحد أن يغيّرها. والأنبياء على عظمتهم، وعلى المواهب والقدرات الهائلة التي وفّرها الله لهم، كان دورهم هو دور المذكّر، كما

يصرّح بذلك القرآن الكريم في آيات عديدة منها: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١]، ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾[٢]

وهكذا الحال بالنسبة إلى القرآن الكريم، فهو أيضاً له دور التذكير، ولكن كيف يزكّي الإنسان نفسه؟ وهنا نطرح السؤال من جديد لنقول: مادام الإنسان هو المسؤول عن نفسه، فكيف يجعل منها -تلك النفس- التي تكون صديقة له؟

إنّ الإنسان من الممكن أن يفكّر في بناء بيته، وتطوير وسائل رفاه نفسه، ولكن مثل هذه المظاهر لا تلبث أن تنتهي وتزول ليكون مصيرها الفناء والإندثار، فالإنسان لا يحمل إلى قبره سوى كفنه، ولكنه في لحظة واحدة يترك كلّ شيء بعد أن تنتهي حياته، ونفسه وحدها هي التي ستبقى معه. فهذه الصديقة لا يمكن أن تتركك حتّى إذا تركتها، فهي ستلاحقك في البرزخ، وفي يوم القيامة، وهي معك أينما ذهبت؛ لأنّها هي التي ستحدّد مصيرك في نهاية المطاف!

نسأل الله تعالى ان يوفقنا لتزكية أنفسنا إنه سميع مجيب.

---

(١) الذاريات ٥٥.

(٢) الغاشية (٢١-٢٢).

الحلقة الثالثة

الخروج من شحّ الذات

لنبدأ بأنفسنا

عزيزتي القارئة، ليقرّر كل واحد منّا أن يخرج من شحّه الذاتي، وليبدأ بالتفكير في الآخرين، وليخرج من قاموسه عبارات مثل «ليس من شأني» فمثل هذه التبريرات يجب أن نخرجها من حياتنا، فالمجتمع الذي لا يبالي لا يمكن أن يكون مجتمعاً ناجحاً، بل إنّ المجتمع الناجح هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير، ويتواصى بالصبر والمرحمة، والذي ينتمي كلّ فرد من أفراده إلى مشروع لصالح الآخرين. فمن الخطأ أن ينام الواحد منّا وهو غير عازم على فعل الخير.

لنبدأ ولنتحقّق مفهوم «إقتحام العقبة» فيها، فلا يفكّر كلّ منّا بنفسه، بل عليه أن يصبّ تفكيره على الآخرين، وحينئذ ستسود في المجتمع حالة التفاعل، والتآزر، والإنسجام، وبالتالي العطاء والتحرك.

ونحن إذا رأينا أنّ العالم تسوده شريعة الغاب، وظواهر التخلّف، ويعاني من المشاكل، فالسبب في ذلك يعود إلى بعده عن وصايا الدين، وعن أحكام القرآن الكريم. فلنبدأ بإصلاح أنفسنا، والله عز وجل سوف يوفّقنا لما فيه الخير والرشاد والصلاح.

كيف نتجاوز نواقصنا الذاتية؟

في الإنسان نواقص ذاتية وأخرى عرضيّة؛ وعلى سبيل المثال فإن الكبر والحسد وحبّ الخلود والسيطرة وغيرها إنّما هي ثغرات ذاتية عجنت بها فطرة الإنسان، أمّا النواقص العرضيّة فتلحق بالإنسان من جراء دخوله في معترك الحياة والتصاق مساوئها به، ولهذا السبب تعلق بالإنسان مجموعة من النواقص والمساوئ، وهو إذا لم يكن جدّياً مؤمناً بيوم القيامة وخطورة الحساب وعظمة الجزاء، فإنه -لا محالة- سيقع فريسة هذه المساوئ والنواقص.

إنّ أولئك الأناس الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً، بإمكانهم التخلّص من النواقص الخارجية، ثم هم -بعد ذلك- يسعون سعياً حثيثاً، ويجاهدون أنفسهم لسنين طويلة من أجل أن يصلحوا ذواتهم، وعندما يحقّقون هذا الهدف فإنهم سيكونون مستعدّين حينئذ لدخول الجنّة.

ولنا في إخراج آدم زوجه من الجنّة خير شاهد على ذلك؛ إذ لم يكن النظام الإقتصادي أو السياسي فاسداً هناك، ولم تكن البرامج التربويّة خاطئة، ولم تكن توجد أية قناة من قنوات التأثير على النفس البشرية، ومع ذلك فقد أُخرجا من الجنّة؛ لأنهما كانا يعانيان من مساوئ في ذاتهما

حرّمت عليهما البقاء في الجنة، وحتّمت عليهما الهبوط إلى الأرض ليمتحن الله تعالى إرادتهما في الدنيا، ويصلح نفسيهما، ليعودا إلى الجنّة طاهرين نقيّين.

وبتعبير آخر؛ فإن الهدف من خروج الإنسان من عالم الذر والأشباح والأصلاب إلى عالم الدنيا بمشاكله، وصعوباته، ونعمه، ونقمه، إنّما هو إصلاح لذات الإنسان من نواقصها، لا مجرّد إصلاح جوانبها الفوقيّة.

وفي هذا المجال يقول عز وجل وهو يصف عمليّة إغراء إبليس لآدم وزوجه: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**﴾[1] أي أنّ إبليس قام بإثارة حالة متأصّلة في آدم وزوجه، ألا وهي حبّ الخلود والسيطرة، فما كان منهما إلاّ أن أطاعاه واندفعا.

ويعترضنا السؤال التالي: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد منح آدم وزوجه الجنّة، وأباح لهما كلّ نعمها باستثناء شجرة واحدة، أفلم يكن من المفروض فيهما أن يستشيروا في الأكل من الشجرة؟ نعم، كان جديراً بهما أن يفعلا ذلك، إلاّ أنّ غريزة حب الخلود والملك دفعتهما في لحظة الغرور إلى المبادرة إلى الأكل دون أن يسألا ربّهما.

(١) طه ١٢٠.

ونحن أيضاً مبتلون في حياتنا بهاتين المجموعتين من المساوئ والذنوب الظاهرة التي ارتكبها كلّ واحد منّا دون إستثناء، ومن يدّعي عدم ارتكابه لها فإن إدّعاءه باطل، يعتبر نوعاً من المساوئ الذاتية لأنه يعتقد العصمة في نفسه، فنحن قد ارتكبنا جريمة الكذب على الناس، والغيبة، والنميمة، والحسد، وعدم الإهتمام بالصلاة، وظلم الآخرين، وما إلى ذلك من الذنوب الفوقيّة، وهذه الذنوب إنّما ارتكبت بسبب إنعدام التربية الصالحة، والسياسة والإقتصاد السليمين، والمجتمع الفاضل، وبالتالي فقد بدرت منّا بسبب الإنحراف الموجود خارج ذواتنا.

ما هي خطورة النواقص الذاتية؟

إن هناك ذنوباً أخرى لا تظهر، إلاّ أنّها ذنوب حقيقية وخطيرة، ألا وهي ذنوب الذات والنفس البشريّة، ومن ضمنها إفراغ الشرائع الإلهية من محتواها كأن لا تكون الصلاة برنامجاً لإخضاع النفس الأمّارة بالسوء النزّاعة نحو الكبر.

وفي القرآن الكريم تعاليم غزيرة تبيّن فلسفة الصلاة، والغرض منها، من جملتها قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾[1]، وقوله: ﴿**إِنَّ**

(١) طه ١٤.

الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1]، إذ أمرنا الله تعالى بالصلاة لكي نحارب بها عدّونا، وأنفسنا المتجبّرة الطاغية التي استحوذت عليها الأنانية، كما وأمرنا بالصوم لإيجاد ملكة الصبر في أنفسنا، ولذلك فإنه يسمّى بـ(الصبر) في بعض الحالات كما يقول عز وجل: **﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾**[2]

وإذا ما تحوّل المسلم من قيم ومحتويات وحقائق العبادات إلى القشور والظواهر الخارجية، فهذا يعني أنّه لا يريد إصلاح نفسه بالشرائع الإلهية؛ أي لا يريد الصلاة لتزكية نفسه وتنقيتها من الكبر؛ بل يجعلها وسيلة للرياء الذاتي، ولا يمارس الصوم لتطهير ذاته من اليأس والجزع، ولا الجهاد لإعلاء كلمة الله، ولا السلطة لتطبيق العدالة.

فلتكن جميع أعمالنا -عزيزتي القارئة- وسيلة لتزكية النفس من نواقصها الذاتية، والسيطرة على حالة التجبّر والطغيان في داخلها؛ لأنّ مشكلة الإنسان ليست في قيامه بالعمل، وإنما في صدق نيّته. إن القشريّة هي الداء الأكبر، وهذه القشرية في الحياة هي أكبر الأخطار على الإسلام، فهي تعني تحوّل المحتويات إلى قشور وشعارات، وكلمات برّاقة، ومظاهر خلاّبة وذلك لان وجود الثفنات على الجبين ليست دليلاً

(١) العنكبوت ٤٥.
(٢) البقرة ٤٥.

قاطعاً على قرب الإنسان من الله، فعلينا أن لا ننخدع بهذه المظاهر، كما وعلينا أن لا نخدع أنفسنا بمثل هذه الأعمال، بل علينا أن نركّز إهتمامنا على صدق العمل والإخلاص فيه.

تُرى إلى أيّة درجة تبلغ حسرة الإنسان يوم القيامة عندما يرى أن جميع ما عمله -من صلاة وصوم وعبادة- سيذهب ويتناثر في الفضاء اللامتناهي دون أن يحصل على شيء، كالرماد الذي تشتدّ به الريح في يوم عاصف، والله سبحانه يشير إلى هذا المعنى قائلاً: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾**[1].

إنّ الإنسان السيء يعلم بمصيره، ولكنّ المؤمن إذا لم يكن إيمانه وسيلة لتزكية نفسه، وإصلاح نواقصه الذاتيّة فإنّ حسرته ستكون شديدة، وعلى سبيل المثال فإن أشدّ الناس حسرة يوم القيامة هم علماء السوء الذين يدخلون النار، في حين يرون الآخرين يدخلون الجنّة بسببهم، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ: **((العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإنّ أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وإنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله عزّ وجل فاستجاب له**

(١) الفرقان ٢٣.

وقبل منه وأطاع الله عز وجل فأدخله الله الجنّة، وأدخل الداعي إلى النار بتركه علمه، واتّباعه الهوى)).

وهكذا ينبغي علينا أن نستعيذ بالله جل وعلا من الشيطان كثيراً؛ لأنّه يترصّدنا على قارعة كلّ طريق، وفي كلّ لحظة، وبكلّ وسيلة، لينبذنا في نار جهنّم، ومن جملة مكائده محاولة تفريغ صلاتنا من محتواها، وإضفاء طابع القشرية عليها، فلأنه لا يستطيع أن يمنعنا من إدائها مباشرة فإنه يحاول تزييفها بإدخال الرياء في أنفسنا، وأن يجعل كلّ همّنا أنّ نفرغ من الصلاة دون أن نهتم بها، ونجعل قلوبنا حاضرة فيها.

حضور القلب إستشعار الخشية

وفي مجال حضور القلب، واستشعار الخشية والرهبة من الله تعالى يروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه كان يصلّي ذات يوم، فسقط الرداء عن أحد منكبيه، فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته، فسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: **((ويحك أتدري بين يدي من كنت؟! أنّ العبد لا يقبل من صلاته إلاّ ما أقبل عليه منها بقلبه، فقال الرجل: هلكنا، فقال: كلاّ إنّ الله عز وجل متمّم ذلك بالنوافل)).**

كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجال حبّه للصلاة، وتعلّقه بها قوله:

((وجعل الله جلّ ثناؤه قرّة عيني في الصلاة، وحبّب اليَّ الصلاة كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، وأنّ الجائع إذا أكل شبع، وأنّ الظمآن إذا شرب روي، وأنا لا أشبع من الصلاة)).

الحلقة الرابعة

نور المحبة في آفاق الحياة

المحبة تنوّر آفاق الحياة

إن للمحبّة آثاراً عميقة وسيعة المدى في تقدّم الإنسان الماديّ والمعنوي، ولها في ذلك القدرة العظيمة والعجيبة. وقد جبلت هذه القوة القاهرة في الضّمير الإنسانيّ بالفطرة الاولى وهي تنمو حتى تنتهي أحياناً إلى مثل بحر لا ينزف.

إنّ الإنسان خُلق إجتماعياً وجعل الإجتماع مع الآخرين من ضروريات وجوده. والذي ينفره عن المجتمع ويبعثه على الأنس بالوحدة والحذر من الإختلاط إنما هو الخلل الفكري في الإنسان، فالذين يفرّون عن المجتمع ويأنسون بالوحدة إنّما هم مصابون بنقص في الفكر والوجود. إذ من الواضح الواقع أنّ الإنسان بوحده لا يصل إلى سعادته.

فكما أنّ الحاجات الجسديّة كثيرة تبعثه على السعي في قضائها، كذلك الرّوح له حاجات يجب عليه أن يقضيها، ان النفس تتعطش للمحبّة، ومازال الإنسان يسعى وراء قضاء هذه الحاجة النفسيّة، فالإنسان في أمسّ الحاجة إلى المحبّة والوداد من أوّل يوم يقدم على هذه الحياة الدنيا ويبدأ وجوده إلى آخر دقيقة تغلق عليه فيها أبواب الحياة، وانه ليحس في نفسه وضميره بآثار المحبّة مصورة تماماً. انه حينما تثقل

أعباء الحياة كاهله وتؤلم الحوادث روحه وتكاد المصائب تقطع حبائل آماله، يتعطش إلى المحبّة والوداد عطشاً عظيماً، وهذا العطش هو الذي ينوّر قلبه بأمل اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، انه حينئذ لا يضمن لنفسه السكون ولضميره الراحة إلاّ في ظلال المحبّة. وحقّا إنْ كان هناك بلسم للآلآم والمصائب والشدائد فليس هو الا المحبّة.

إن حبّ الإنسان لأخيه الإنسان من أجلى عواطف الإنسان، بل نستطيع أن نعدّه أصلا لسائر الفضائل الأخلاقيّة ومنبعاً لألطافها، وان الحب قابل للإنتقال والشمول، وان خير الطرق إلى شمول حبّهم لنا لهو أن نحبّهم ونقدّم لهم عواطفنا الطيّبة بكل سخاء، وأن نعتقد أن وظيفتنا بالنسبة إلى أبناء نوعنا ليس إلا أن نؤدي وظائف المحبّة والوداد. إن بذل الود للآخرين لهو خير تجارة رابحة، فإنه لو بذل الإنسان بكرامته للآخرين شيئاً من هذه الجوهرة الثمينة التي تكمن في قلبه، لتلقّى منهم من ذلك أضعافاً مضاعفة. إن مقاليد قلوب الناس بيد الإنسان نفسه، فالذي يريد الطريق إلى خزائن هذه الجواهر الثمينة يجب عليه أن يملأ قلبه من نور الصّفاء والخلوص، وينزهه من الصّفات غير المحمودة، ثم يهبه لكل من يتلقّاه بحسن القبول.

بقول الفلاسفة: «إن كمال شيء في ظهور خواصّه وآثاره، وخاصّة

الإنسان، الأنس والمحبّة».

إن المحبّة والعلاقة الروحيّة التي تنشأ بين بني آدم لهي أساس التعامل والتعايش السلمي المستقر.

يقول أحد الكتّاب: «انه من أجل أن يصل المجتمع إلى السعادة يجب أن يكون أفراده مترابطين كلبنات بناء واحد، ولكن ليس هناك أيّة مادة بنائية يمكن أن تربطهم هكذا الاّ مادة المحبّة التي نراها بين أفراد عائلة واحدة، حينما تنبسط فتشمل جميع العائلة الإنسانيّة. وان لأصل حبّ الإنسان للآخرين فرعين: فرعاً يوصي الإنسان بحبّ الآخرين، وفرعاً آخر يوصيه بان يحبّب نفسه إليهم بأن يجعلها في مستوى حبهم. وما لم يسع كل شخص في سبيل ترك العادات الذميمة لا تتحقق المحبة المتبادلة، إننا لا نستطيع الوصول إلى هذا الهدف الاّ بالتحرر عن المفاسد التي تحجبنا عن الآخرين عن طريق ثورة نفسية، وحينئذ يمكننا أن نرى الجار ينظر إلى جاره بالإكرام، والعامل إلى صاحب العمل، وصاحب العمل إلى عامله بمحبة. إن المحبة هي التي تستطيع أن تعمل في المجتمع الإنساني ما عملته الغرائز الخاصة في مجتمع النمل والنحل طوال ملايين السنين!».

الكِبر يولد التذمّر لدى الناس

إن غريزة «حب الذات» من الغرائز الأساسية في طبيعة الإنسان، وهي غريزة ضرورية لاستمرار حياته، فإن علاقته بالوجود وسيعة في حياته، وبقائه إنما ينبع من هذه الغريز، وهذا المنبع الطبيعي وإن كان قوة مثمرة يمكن أن ينمي بها كثير من الصفات الحميدة في وجود الإنسان، لكنها إن أفرط فيها أصبحت منشأ لكثير من السيئات والإنحرافات الأخلاقية المختلفة.

إن أول الأخطار على الأخلاق هو الإفراط في حب الذات، فإنه قد يصل بصاحبه إلى أن لا يدع له في قلبه مجالاً لحب الآخرين، وان هذا الإفراط هو الذي يمنع صاحبه عن الإعتراف بأخطائه، أو عن قبول الحقائق التي تتنافى مع غروره العاطفي. وانّنا كثيراً ما يتفق لنا أن نبدل كثيراً من أفكارنا أو أعمالنا من دون أي قلق أو إضطراب، ولكننا إذا اطّلعَنا أحد على خطأ أو زلّة وجدنا في أنفسنا ثورة توقفنا أمام هذه النسبة موقف الدفاع، انّنا نتقبل العقائد بكل سهولة ولكن إذا أراد أحد أن يسلبنا عقيدتنا وقفنا أمامه موقف المُدافع المتهور، بينما لا نجد علاقتنا بأصل عقائدنا بهذه المتانة والقوة، ولكننا نرى عواطفنا وإحساسنا ذاك في خطر عظيم.

الكبر والإفراط في حب الذات

إن أكبر آفات السعادة وأشقى أعداء البشر هو الكبر ورضا الإنسان عن نفسه، ولا تصل كراهية الناس من سائر الرذائل الخلقية إلى ما تصل إليه كراهيتهم من التكبر. إن الكبر من الصفات التي تقطع حبائل الألفة والأنس بين الإنسان وأخيه الإنسان، بل يبدلها إلى العداء، ويفتح على صاحبه باباً من الإنزجار العام. كما يتوقع الإنسان من الآخرين المحبة والاكرام كذلك، وعلى نفس المستوى والمدى يجب أن يكون هو ساعياً في حفظ شؤون الآخرين وكراماتهم ومحترزاً عن كل ما يخالف حسن المعاشرة وقطع حبائل الوداد.

إن المجتمع هو الذي يحفظ لكل أحد حقوقه وحدوده، فكل أحد يرى منهم من الإكرام والمحبة بمقدار لياقته ومؤهلاته، أما الذي قصر نظره على حب نفسه فإنما ينظر إلى ما يريد ثم لا يبالي بحقوق الآخرين وشؤونهم وأحوالهم أبداً، فهو يحاول بعناد وإصرار شديدين أن يجعل نفسه في معرض الجلال والشهرة، وأن يحمل كبره الموهوم على رقاب الناس. وان هذا الإصرار على توقع الإحترام له من الناس في غير محله؛ بسبب ظهور مضادة شديدة بين ما يريد وبين ما يعامله به الناس خليطاً بالتنفر والإنزجار العميقين. وان رد الفعل هذا من المجتمع على المتكبر

سيؤلمه، وسيتحمله هو بكل قلب واضطراب.

قادة الدين يعطوننا دروساً في التواضع

إنّ إحدى الفضائل الأخلاقية التي يمكن أن نعدّها رمز المحبّة وأحسن الطرق لها في المجتمع هي «التواضع»، فإن المتواضع بعمله بوظيفته الأخلاقية يرفع من قيمته في مجتمعه إلى حدّ الشّرف الرفيع، وبذلك يبسط نفوذ حبّه في قلوب الناس. ويجب أن نلتفت إلى أنّ بين التواضع والتذلّل فرقاً فاحشاً وبوناً بعيداً وشاسعاً، إذ ان التواضع عبارة عن فضيلة أخلاقية لشخصيّة عظيمة ونفس مطمئنة، بينما التذلّل إنّما ينشأ من الإنحطاط الخلقي وفقدان الشخصيّة.

كان لقمان الحكيم -كما يحكي القرآن الكريم- يحذّر ولده من الكبر في مواعظه إليه اذ يقول: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[1]، ﴿**وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا**﴾[2].

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: ((**فلو رخّص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كرّه اليهم**

(١) لقمان ١٨.

(٢) الإسراء ٣٧.

التكابر، ورضى لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين)).

الحلقة الخامسة

سوء الخُلق ينفر عنك الناس

الأخلاق الحسنة والسيئة

عزيزتي القارئة، إن من العيوب الخُلُقيّة والعادات غير المرْضيّة هي ما يسبب تزلزل أسس المحبّة ويجر إلى إنقطاع حبل المودة بين الأودّاء هو سوء الخُلق، فإن ذا الخُلق الخشن الذي لا يأتلف ولا يؤتلف يوجد بين نفسه والآخرين جداراً لا يتمكن معه أن يبصر أنوار الوداد. إن سوء الخلق يقلل من قيمة المرء ويحطّم أسس سعادته وهنائه، ولا شكّ أن سيء الخلق ينفر منه كل أحد، فإن الإنسان يتألم مِن معاشرة مَن لا يأنس به ولا يتناسب معه. وهذا ما يسلب صاحبه إمكانيات كثيرة، لو لا سوء خلقه يستطيع أن يستفيد منها في سبيل تقدّمه في الحياة.

يجب على الإنسان الذي يريد أن يتعاشر مع الآخرين أن يتعرّف على أمور تشترط في فن المعاشرة، يجب أن يتعلمها الإنسان مسبقاً ثم يعمل على طبقها في الحياة وينتهي طبقها عن أمور تباين السنن الصحيحة في المجتمع، وبدون ذلك لا يتحقق للفرد أن يعيش بين المجتمع، ولا تتكامل الأخلاق العامة بينهم.

إن حُسن الخُلق أول شروط السعادة بين الناس، وانه عامل في رفع مستوى شخصية الإنسان إلى الأعلى، وهو يتيح للإنسان أن يستفيد من جميع قوّاه، وله التأثير التام في إدارة حياة المجتمعات، ولا تصل أيّة

صفة أخرى من صفات الإنسان إلى ما عليه هذه الصفة من إستجلاب عواطف الآخرين، والتقليل من آلامهم في الحياة.

إن الذي يتمتع بهذه الروحية الإنسانيّة العالية لا يُري الآخرين وجهاً عبوساً، يمكنهم أن يبلغوا إلى اغوار آلامه من ورائه، بل انه يسعى دائماً أن يخلق حوله هالة من النشاط والسرور، مما يخلق لهم من الطمأنينة آلامهم، وهو يحفظ الطمأنينة في نفسه على رغم مشاكل الحياة فيصل بها إلى الفلاح والنجاح.

أثر الخُلق على الآخرين

إن لحُسن الخُلق عامل قوي له الأثر القاطع في تأمين التوفيق للأفراد في الحياة، فليس بحاجة أن نقول: «إن تَقَدُم شركة تجارية مثلاً يرتبط بحسن أخلاق العاملين فيها بنسبة كبيرة». ان مدير أيّة مؤسسة لو كان ذا أخلاق طيبة فهو بالإضافة إلى أنّه يتمتع بقدر كاف من النشاط سوف يجذب إلى نفسه عدداً كبيراً من المراجعين.

يقول أحد الشعراء:

بحسن خلقك جادلهم فتصحبهم

فلا يصيد ذكيّ الطير الاه

إن حُسن الخلق هو سر المحبوبية عند الناس، فإن الناس لا يتحملون سوء خلق أحد مهما كانت منابعه وأسبابه، انك لو أمعنت النظر في سيرة من يعاشرك، التفت إلى السبب الكامن في عدم نفوذ حب بعضهم إلى قلبك وامتلاك بعضهم الآخر لقلبك بأخلاقهم وصفاتهم.

يَذكُر أحد علماء الغرب تجربة شخصية في مورد حُسن الخُلق يقول: «عزمت على تجربة أثر نشاطي، وطلاقة وجهي على نفسي، وكنت منذ مدّة حزيناً كئيباً فخرجت بهذا العزم من بيتي، وقلت في نفسي: لاحظت مراراً أن نشاط غيري وطلاقة وجوههم يمنحني قوة ونشاطاً، فعلي أن أعلم هل أستطيع أنا أيضاً أن أؤثّر هكذا في الآخرين أم لا؟ وكنت أثناء الطريق أكرّر في نفسي عزمي على النشاط وطلاقة الوجه، وكنت أحاول أن أقنّع نفسي أنّي سعيد الحظ جداً، وبتأثير من هذه الإيحاءات النفسية أحسست راحة في بدني، وكأني بنفسي أطير فرحاً وسروراً، وأنظر إلى ما حولي مبتهجاً مبتسماً، ولكني كنت أرى حولي وجوهاً قد ارتسم عليها ملامح الأفكار الكئيبة، فكان يتحرّق قلبي حزناً عليهم، وأتمنى لو كنت أستطيع أن أمنحهم شيئاً مما في قلبي من لمعات النور والضياء. دخلت إلى مكتب عملي فسلّمت على المحاسب بكل نشاط، وحيث لم أكن قبل هذا اليوم بذلك النشاط فلم أكن في سائر الأيام أسلم عليه هذا

السلام حتى ولو كنت أنقذ به حياتي، ولم يتمالك المحاسب إلا أن أبدى لي حرارة وعاطفة شديدة، أحسست من خلال ذلك أن نشاطي قد سرى اليه. وكان رئيس تلك الشركة التجارية التي كنت أعمل فيها من أولئك الذين يلتزمون اعمالهم بحيث لا يرفعون إلى من حولهم، وكانت له أخلاق خشنة، فأنّبني ذلك اليوم في شأن عملي تأنيباً شديداً لو كان ذلك في غير ذلك اليوم لم أكن أتحمله، إذ كنت رهيف الحس شديد الإحساس، ولكن حيث كنت عزمت ذلك اليوم على أن لا أتأثّر من أيّة حادثة، أجبته جواباً بسط من على محياه من التجاعيد ما كان قد قطب به في وجهي، وكانت هذه القضيّة ثانية الحوادث لي في ذلك اليوم. وإلى المساء من ذلك اليوم حاولت أن أحتفظ بنشاطي لنفسي ولمن حولي من زملائي في العمل، وبنفس هذه الطريقة توفقت أن أجرّب هذه العمليّة في العائلة التي كنت أقيم بينها، فكان أثر تجاربي أن بدى على من لم أكن أشاهد فيه من قبل سوى الفتور والإهمال علائم العواطف والتلاحم. وعلى أثر تجاربي المتعددة اكتشفت أنّي أستطيع أن أكوّن بهذه الطريقة نشاطاً لنفسي وأوحي لمن حولي بذلك أيضاً».

وأنتُنّ أيضاً لو عاشرتنّ الناس بهذا التفكير رأيتنّ وجوهاً من الإبتهاج والفرح تنفتح أمامكن كما تنفتح براعم الزهور في فصل

الربيع، ولكسبتنّ لأنفسكن صديقات عديدات، ولساد السلام والوئام على أرواحكن دائماً.

ليس هناك من ينكر تأثير هذه الصفة حتى في إخضاع قلوب الأعداء، ان من البيان لسحراً يؤثّر في الآخرين، وان للأدب والإحترام في الكلام دوراً مهماً في إخضاع الخصم لما يرام.

آثار حُسن الخُلق

يقول أحد الكتّاب: «إن جميع الأبواب مفتّحة على الوجه الطلق ذي الخُلق الحسن، بينما يضطرّ ذو الأخلاق السيّئة أن يضغطوا على الأبواب المغلقة لفتحها كالصعاليك، أنّ أحسن الأمور ماتم بالأدب والظرافة وحُسن الخُلق». ونضيف ان حُسن الخُلق إنما يوجب السعادة ويبلغ بصاحبه إلى الكمال حينما يكون من صميم القلب بعيداً عن كلّ ما يتعلق به من الرياء والتظاهر، نعني أن ينبع الإحساس بالمحبة من أعماق الروح، فإنه ما لم يصبح الأدب وحُسن الخلق من الملكات الباطنة الطاهرة لا يمكن أن يكون له قدر أو اعتبار، فإن حسن الظاهر فحسب ليس دليلاً على المزايا الباطنية وطهارة السيرة لأحد، فإنه من الممكن أن تكون الأخلاق الظاهرة مع كل ما فيها من الجمال نابعة من قلب منقلب في الضلال ملوّثاً، فما أكثر الشياطين في ملابس الملائكة، الذين يخفون

وجههم الرهيبة الهائلة تحت ستار جميل.

ولنا عزيزتي القارئة في رسول الإسلام قدوة وأسوة، فكلنا يعلم بأنّه كان من أكبر عوامل تقدّم الإسلام حسن أخلاق الرسول الأكرمﷺ، يقول الله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1]، كان رسول الله يفتح صدره الرحب على كافة الناس، وكانت تتجلى في سيمائه الملائكي الجميل محبّة عميقة للبشرية لا يمكن أن توصف، فكان يعم المسلمين على السوية باللطف والعناية، وكان رسول اللهﷺ يقسّم لحظاته بين أصحابه ينظر إلى ذاك وينظر إلى ذاك بالسوية. وكانﷺ يذم سوء الخلق فيقول: ((**سوء الخُلق شؤم وشراركم أسوأكم خلقاً الخلق من الآثار والنتائج الصحيّة**)).

وقد عدّ الإمام الصادقؑ هذه الصفة الحميدة من أسباب السعادة إذ قال: ((**من سعادة الرجل حُسن الخُلق**)). ويقول أحد الكتّاب هناك مَثَل مشهور يقول: «ان الخُلق الحسن واعتدال المزاج لهما الأثر في تقدّم الإنسان وسعادته، كما تؤثر فيهما القوى والإستعدادات الذاتية الفطريّة، وحقيقة الأمر أنّ سعادة الأفراد ترتبط إلى حدّ كبير بحسن أخلاقهم ومحبّتهم».

---

(١) آل عمران ١٥٩.

إن حُسن الخُلق يوجب توسعة في المعيشة وزيادة في الرزق والألفة، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**حُسن الأخلاق يدر الأرزاق ويؤنس الرفاق**)).

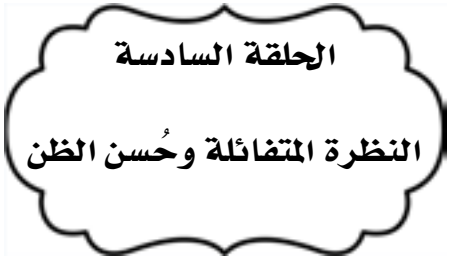

الإطمئنان والقوة والسعادة تنبع من داخل الإنسان

إنّ الإنسان يحتاج في صعيد الحياة المليء بالضوضاء إلى إطمئنان الخاطر أكثر من أي شيء آخر، فمَن يشتغل على صعيد الحياة بالكفاح فيها بدون هذا السلاح فسوف ينتهي كفاحة لا محالة إلى إنهزام، وكلّما كان ثقل الحياة أثقل كانت هذه الحاجة أشد وأكثر وأوغل. فعلينا أن نعرف الآن كيف نستطيع أن ننجو من أسر الإضطرابات الشعواء، وأن نأوي إلى جناح الطمأنينة والإستقرار.

إن السعي وراء الثروة، والقدرة، والشهرة، والمادة لتحصيل الطمأنينة سعي باطل، وسوف تذهب جميع المساعي الشخصيّة في هذه الطرق سدى، إذ أنّ منبع السعادة ليس إلا في نفس الإنسان، كما أنّ منبع الشقاء أيضاً في نفس هذا العالم الباطني، كما ينسب إلى أمير المؤمنين﵇ قوله:

أتـزعـم أنـك جـرم صغي
وفيك انطوى العالم الاكبر
دواؤك فـيـك ومـا تشعر
وداؤك منك وما تبصر

فالدواء كما يقول أمير المؤمنين﵇ في نفس الإنسان فلا يمكن أن نجد في المقتضيات الخارجية لهذا الهدف مثل ما نجده في الذخائر الثمينة من القوى الباطنية للإنسان، فإن جميع منابع الرفاهية الخارجية وجميع الوسائل والمتشبثات التي تتخذ في هذا السبيل مؤقتة زائلة، فمحال أن تبلغ بالإنسان إلى الطمأنينة الكاملة، إنما الفكر والخصائص الأخلاقية هي التي لا تزول، فهي التي تغني الإنسان عن الإلتماس والتوسّل بالأمور الزائلة.

يجب أن نعترف أنّ حلّ الكثير من الألغاز المدهشة في الطبيعة، وأنّ تكثير وسائل الحياة في العصر الحاضر لم يكف لايجاد حياة لا قلق فيها ولا إضطراب، وليس أنها لم تستطع أن تقلل من آلام الحياة فحسب، بل أتحفت البشريّة تشويشاً وقلقاً واضطراباً جديداً، وعلى هذا فمن أجل الإبتعاد عن الآلآم المستمرة في الحياة، ولأجل الإرتفاع عن سطح السحب السوداء التي سترت أرواحنا نحتاج إلى الأفكار النيّرة حاجة ماسّة.

الفكر والتفكير وأثره على النفس

إن الفكر يعد بحق أكبر القوى الفعّالة في حياتنا، كما استطاع أن يسلط البشر على الحياة المادية وأن يوجد تغييراً مذهلاً في جميع شؤون الحياة، ويستطيع أن يؤمّن الروعة فيها أيضاً، ومن هنا يتجلى الدور الأساسي للفكر وأثره المدهش في حياة البشر.

إن الفكر النيّر منبع فيّاض، يقدّم الإنسان إلى أعلى من حاجاته الماديّة ويعرّفه على عالم آخر، إن الأفكار العالية تمنع الإنسان الواعي من أن يصبح ألعوبة بيد القلب، ان الذي ربيت قواه الفكريّة نافذة قويّة حتّى أصبحت مركز الثقل في وجوده، يتمكن حين الوقوف على أعتاب الحوادث المرّة أن يتخذ حالة فكريّة إيجابية بنّاءه، ويكون كالجبل الراسخ، لا تحرّكه العواصف، ولا تزيله القواصف.

ولأجل النجاة من سيطرة الحوادث، ومن أجل أن لا تقع سفينتنا في الحياة في خضم أمواج الإفراط أو التفريط، يجب علينا أن نوجد في أفكارنا ميزاناً نقيّم به أنفسنا في تصرّفاتها فتقودنا الأفكار الصحيحة، للتي هي أقوم وتتجهز جميع قوانا الروحيّة ضد العوامل التي تولد القلق فينا. يقول أحد العلماء: «لعلنا لا نستطيع أن ننتخب أولئك الأفراد القلائل الذين يشبهوننا من حيث الأخلاق أو النواحي الأخرى، ولكننا

أحرار في إختيار افكارنا، فإنّنا في عقولنا حكماء بما نشاء، وليست هذه المقتضيات والظروف والمؤثرات أو الأشياء الأخرى التي نشاهدها في خارج عقولنا داخلة في عقولنا حتى تؤثر فيها أو تتحكم وتضطرنا إلى أن نختار ما لا نريده من الأفكار، اذن يجب علينا أن نتعرّض للأفكار الصحيحة، وان نطرد عن عقولنا الأفكار القاصرة، فإننا نتوجّه دائماً إلى حيث تتوجه اليه أفكارنا، وبعبارة أخرى إن أفكارنا هي التي توجهنا أي جهة شاءت، فيجب علينا أن لا نبيح لأنفسنا أن نفكّر تفكيراً شريراً، ولا أن نشغل عقولنا بما نحن منه براء، فإن هذه الأفكار هي التي تأسرنا فتسقطنا في أنواع البلاء، يجب علينا دائماً أن نكون في التفكير نحو التكامل لا الإنتقاص، يجب علينا أن نشغل أنفسنا بأحرّ الآمال وأسمى الأهداف، فإن سرّ الموفقية والسعادة إنما هو في التفكير السليم فحسب».

كما يختل النظام الجسماني بأنواع الأسقام، كذلك تختل الطمأنينة الفكريّة بعوامل مختلفة من العادات والصفات الذميمة، فإن الفكر مع ما له من قوة لا يستغني عن السلوك الأخلاقي، وإنما يجد الإنسان لذّة السعادة حينما يتحلى بالأخلاق وتنسجم نشاطاته الفكرية والأخلاقية بعضها مع بعض، فيجب على الإنسان اذن أن يقلع بقوة الإرادة جذور

تلك الصفات التي تخيّم على حياته كالسحب القائمة السوداء، وأن يزرع مكانها عوامل الطمأنينة والإستقرار.

آثار النظرة المتفائلة

إن أحد العوامل التي تساعد على الإستقرار الفكري هي النظرة المتفائلة إلى الحياة والثقة بالآخرين، إن النظرة المتفائلة وحُسن الظن بالناس يعدّ ضماناً للطمأنينة لمن يعيش في ساحة الحياة الإنسانية، على العكس من النظرة المتشائمة وسوء الظن بالآخرين فإنها توقف النشاط الفكري وتقلل من قوّة التكامل فيه. إن النظرة المتفائلة في الحياة كالنور في الظلمات، تتّسع في ظلالها آفاق التفكير، وينمو في الإنسان حب الإحسان، وبهذا يحصل للإنسان لون أجمل وأحلى، فيرى جميع الناس في الضياء ويحكم عليهم أو لهم حكماً جليّاً واضحاً، وتقلّ ألوان آلامه وتنقد آماله، ويحفظ علاقاته الظاهريّة والمعنوية والعاطفية مع أفراد المجتمع على أحسن وجه.

لا شيء في الحياة يقلل من خضم مشاكل الحياة كما تقللها النظرة المتفائلة، فإن الذي يتمتع بهذه الفضيلة الأخلاقية لا ترتسم أنوار المسرّة على محياه في حال الرضا فقط، بل يلائم نفسه مع المشاكل والأمور السلبيّة في الحياة فيحلها برأيه الصائب وقوّة الأمل بكل بساطة، وتراه

تشع من روحه دائماً أنوار الطمأنينة والإستقرار. إن الحاجة إلى إكتساب ثقة الآخرين بالشخص حاجة ضروريّة، ولأجل الحصول على الثقة بين الأفراد يجب أن يدخل أصل حُسن التفاؤل في برامج المعاشرات في هذه الحياة، وهذه حقيقة لها الأثر المباشر في سعادة الفرد والمجتمع. إن وجود الثقة بين الأفراد من عوامل اطّراد أزدهار المجتمع وتقدّمه، والعكس صحيح أيضاً، فإن فقدان الثقة بين الأفراد من عوامل الإنهزام والإنحطاط في المجتمع، وكلّما كانت المواصلات بين الأفراد أعمق وأكثر كان تقدم المجتمع واطّراده أكثر وأسرع. وان من أولى الثمار الإجتماعية للنظرة المتفائلة هو الإئتلاف والتعاون والثقة فيما بينهم، وإنما يمكن التمتع بحياة من نوع التعايش السلمي فيما لو كان التعايش بين الأفراد مبنياً على أسس العلاقات القلبية توأماً مع الثقة بالآخرين وحُسن الظن بهم. أما مع فقدان حُسن الظن بين الأفراد وانتشار روح التردّد والتشكيك فلا يتحقّق التعاون بينهم، بل يزاحم بعضهم بعضاً وينتقد بعضهم الآخر بلا مبرّر. ومن المقطوع به أن مثل هذا المجتمع سوف لا يكون إلا مجتمعاً صوريّاً ظاهرياً، فاقداً لما يمكن أن يكون للمجتمع من آثار ونتائج نافعة. يقول أحد العلماء: «إن حُسن الظن من مظاهر الإيمان، ولا يمكن أن يتحقّق أيّ عمل بدون إيمان وأمل».

والإسلام أيضاً عزيزتي القارئة يوصي بالتفاؤل وحسن النظر، فالإسلام بملأه لقلب المؤمن بالإيمان قد غرس في قلبه أصل التفاؤل وحسن النظر، وهكذا قاد المؤمنين إلى حيث الطمأنينة والإستقرار. وكان الرسول الاكرمﷺ متّصفاً بهذه الصفة إلى حيث اتهمه المنافقون بما حكاه عنهم القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] وأرادوا بقولهم هذا أن يصوّروا هذه الصفة الممتازة فيه بصورة كريهة غير مرغوب فيها. إن الإسلام قد أمر المسلمين أن يحُسن الظن بعضهم ببعض، وأن يفسّروا عمل المؤمن بالوجه الصحيح المشروع أو أن يحملوه على ذلك، فلا يجوز لأحد أن يحمّل عمل أي مسلم على الفساد من دون أن يكون له شاهد قاطع على ذلك، قال أمير المؤمنينعليه السلام: ((**ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً**)).

(١) التوبة ٦١.

الحلقة السابعة

النظرة المتشائمة وسوء الظن

أنت مخيّر كيف تنظر للحياة

إن حياة الإنسان خليط من الراحة والألم، فكل منهما يستوعب ناحية من العمر المحدود للبشر في هذه الحياة، وكل إنسان يواجه قسماً منهما على حدّ ما له من نصيب، ويقع فريسة بينهما لمشاكل الحياة ومصائبها، وطبقاً لهذه الحقيقة المرّة تتأرجح حياة الإنسان بين الألم والراحة.

ولا نستطيع نحن أن نغيّر من هذا الناموس الأبدي في هذه الحياة الدنيا حتى تخضعها لما تشاؤه أهواؤنا، ولكنا بعد أن تعرّفنا على حقيقة هذه الحياة نستطيع أن نعطف أنظارنا على الجانب الجميل من موجودات هذه الحياة، وأن نزحزح عن أبصارنا تلك الأشكال الكريهة من صور الحياة في هذا الفضاء الرحيب الذي يزخر ببديع الصنع ولطائف الحكمة، والذي يشتمل كل شيء فيها على معنى من اللطف الخاص به مخلوق من أجله، أو أن نعكس، فننسى ونتناسى تلك النقاط النيّرة والمشعة من الوجود، وأن نتوجّه دائماً إلى المواضع المظلمة والجوانب القائمة السوداء منها، وبكلمة نقول: إن لكل أحد أن يوجّه فكرته إلى أيّ جهة شاء وأراد، وأن يصوّر الحياة بأيّ لون أحب.

يجب علينا أن نهيّء أنفسنا لمواجهة ما لا يلائمنا، مما يسدّ علينا

طريق الحياة؛ حتى لا نفقد عندها القدرة على ضبط أنفسنا، وإلاّ فسنقابل بخسائر لا تجبر، بل ربما نسقط في خضم حوادث الحياة.

قد يتصوّر بعضنا أن لو كانت حوادث الحياة تجري على غير ما جرت عليه لكانوا سعداء، بينما لا يرتبط شقاؤهم بحوادث الحياة، بل بالكيفية التي يواجهون بها تلك الحوادث، فإنه من الممكن أن يغيّر الإنسان من تأثيرها على الروح، بل يكسب المواقف الموفقة من خلالها.

إن لأفكارنا سر

كتب أحد الكتّاب المعروفين يقول: «إن أفكارنا تدور دائماً مدار السخط والكراهية، فعلى أيّ حال نحن شاكون باكون عاتبون، وسبب هذه الشكاوى والبكاء منطو في ضمائرنا، فانّنا مخلوقون بكيفيّة يتعذّب وجودنا ممّا لا يلائمه في الجسم أو الروح، ترانا كل يوم نتمنى ونأمل شيئاً جديداً، بل ربما لا نفهم ما نريد وما نتمنى، ونظن أنّ السعادة قد حصل عليها الآخرون فنحسدهم أو نغبطهم ونتألم، إنّنا نشبه الطفل غير المؤدّب الذي يخلق الحجج والمعاذير، ويضجّ بالبكاء والنحيب، وتتألم أرواحنا من ضجيج هذا الطفل وصراخه، ولا نرتاح من صراخ هذا الطفل إلا إذا جعلناه يبصر الحقائق بعد أن لم يكن يبصر إلا الأهواء، فنمنعه من مشتهياته الهوجاء، إنه على أثر أهوائه الكثيرة قد يصبح لا

يرى الاّ سوءاً، فيجب علينا أن نفتح عينه على جوانب الخير في هذه الحياة، يجب علينا أن نفهّمه أنّه إنما يحظى باقتطاف الأوراد والزهور من حديقة هذه الحياة مَن كان يفتح عينه عليها ويبصرها، ومَن كان أعمى فإنه سوف لا يحظى من الحديقة إلا بأشواكها. نحن لو تجاوزنا الضجر وسوء النظر ونظرنا بعين التحقيق، لرأينا أنّه في كل عهد وحتّى في هذا العصر الذي قد وقع في هوة سحيقة مهوّلة، والذي تنقلب فيه حياتنا في كل ساعة رأساً على عقب ويختلط فيه السليم والسقيم والحابل والنابل، ورأينا أنّ هناك في بستان هذه الحياة في كلّ مكان أوراداً ورياحين تدعو عيون الناظرين إلى نفسها في كل زمان».

إن للأفكار –عزيزتي القارئة– أثراً عميقاً في سعادة الإنسان، بل إن العامل الوحيد المؤثّر في سعادة الإنسان هو مدى عقله وفكره، فالحادث غير العادي في نظر المتشائم يصبح كبيراً قاصماً للظهر لا يتحمّله، أما المتفائل في الحياة الذي ينظر إليها بنظرة حسنة فهو يعتمد في هذه الآلآم التي لا تجتنب إلى أصل التسليم، فهو لا يفقد مقاومته حتى في أشد المصائب والهموم، ولا يخرج عن حد الإعتدال والتوازن والتماسك والصبر.

كُن تكن لك

إن الذين اعتادوا أن يعتقدوا ان محور الشر يتركّز حولهم قاصداً إليهم، سوف لا يعيشون إلا عيشة مؤلمة مظلمة قائمة ومكفهرّة، وسوف يفقدون على أثر حسّاسيتهم البالغة في الحوادث كثيراً من قواهم وطاقاتهم هباء منثوراً، وسوف يبقون في غفلة سادرة عمّا حولهم من مواهب هذا العالم وبركاته المحيطة بهم وهم لا يشعرون.

يقول أحد العلماء: «إن الدنيا تدين الإنسان كما يدينها وتعامله بالمثل تماماً، فإن تضحك لها تضحك لك، وان تقطب عليها تقطب عليك، إن استعملت الفكر الحقتك بالمفكرين، وان كنت رحيماً صدوقاً وجدت حولك أناساً يحبونك وقد فتحوا لك ما في قلوبهم من كنوز المحبّة والوداد».

إن الآلآم مهما كانت بظاهرها مرّة غير مستساغة، لكنها تنتج للروح والفكر ثمارها الخاصة، فإن الطاقات الروحية للإنسان تتجلّى في قتام الآلآم أكثر فأكثر، وان العقل والروح الإنساني يتكاملان في طيّ هذه التضحيات المستمرة والسعي الدائم والأخذ والرد الممتد إلى قمّة الكمالات الإنسانيّة الممكنة.

آثار التشاؤم وسوء الظن السلبية

أما أضرار النظرة المتشائمة، فإن النظرة المتشائمة هي أحد الأمراض الروحيّة الخطيرة، وهي منبع كثير من الخسران والضياع والشرود وخيبة الأمل، وهي شقاء مؤلم معذّب للروح الإنسانية، وان آثارها السيّئة على الشخصيّة الإنسانية لا تمحى.

إن الآلآم والمحن مواسم حسّاسة يمكن أن تنشأ عنها النظرة المتشائمة على أثر ثورة شديدة في العواطف والأحاسيس. ان النظرة المتشائمة التي تنبت في الفكر من هذا الطريق تؤثر أثرها المرّ غير المرضيّ في أفكار الإنسان.

انه لا يتجلّى جمال الخلقة في عين من تكدّرت مرآة روحه بقتام التشاؤم، وليس هذا فحسب، بل حتّى السعادة تظهر له وقد بدّلت صورتها إلى ملال ونكبة وانه بسوء ظنه لا يستطيع أن يتصور عمل أيّ شخص بريئاً عن الأغراض المريضة. إن هؤلاء الذين أصبحت أفكارهم سلبيّة سوف لا يبقى لديهم أيّة طاقة ايجابيّة، فإنهم بأوهامهم يخلقون لأنفسهم ما شاؤوا من المشاكل، ويهدرون طاقاتهم بالتفكير حتى في الحوادث التي لم يصابوا بها بعد ولا يصابون. وكما أنّ آثار النظرة المتفائلة والخلّاقة تسري إلى من حولها، فتحيي فيهم عظيم روح

الأمل، كذلك النظرة المتشائمة تلقّن من حولها الألم والإضطراب، وسوف تسلبهم مصباح الأمل الذي يضيء درب الحياة للسالكين.

وان الآثار السيّئة للتشاؤم لا تقتصر على الروح فحسب، بل تؤثر حتّى في الجسم أيضاً، فتؤخّر شفاء الأمراض، يقول أحد كبار الأطبّاء «إن علاج من يسيء الظن بكلّ شيء وكل شخص، أصعب بكثير من محاولة إنقاذ من يلقي نفسه في البحر مصمّماً على الإنتحار وان إعطاء الدواء لمن يعيش في قلق واضطراب دائم في الحياة كمثل أن يريق أحدنا الماء في الزيت المغلّى على النار، فإنه لابد في تأثير أيّ دواء ان يكون المريض المعالج محتفظاً بروح الرضا والطمأنينة والإعتماد.

إن من يصاب بسوء الظن يرى منه حالة الإنـزواء والحذر من معاشرة الآخرين بشكل واضح، وانه على أثر هذه الحالة غير المرضيّة سوف يحطّم ما في نفسه من استعداد للتقدّم والاطّراد، وسوف تقدّر له عيشة غير مرضيّة. ان سوء الظن أحد عوامل الإنتحار، فإن العزم على الإنتحار ينشأ غالباً من سوء الظن بالحياة.

ونحن إذا عطفنا النظر إلى حيث شئنا من المجتمع البشري شاهدنا أنّ أكثر أحاديث الناس بعضهم في بعض تابع من سوء الظن بدون أيّ مطالعة أو تأمّل، فإنهم مع ما هم عليه من ضعف في الموازنة والحكم

يقطعون في أحكامهم على الآخرين قبل أنّ يطمئنّوا إلى علم بالموضوع، فيصدّقون بلا تصور، وقد يتعرّف الإنسان على اغراضهم الشخصيّة من خلال كلامهم. إن هذا العيب الكبير يسبب إنقطاع أواصر الوحدة والألفة القلبية. ويسلب من الناس حسن اعتماد بعضهم على بعض، ويفسد أخلاقهم بل أرواحهم أيضاً.

مكافحة الإسلام لسوء الظن

ان القرآن الكريم صرّح بعد التشاؤم وسوء الظن من الذنوب والمعاصي وحذّر المسلمين من سوء ظن بعضهم ببعض فقال ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾(١).

إن الدين الإسلامي منع الناس من سوء الظن من دون برهان قاطع عليه، قال رسول الله ﷺ: ((**المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وأن يسيء الظن به**)).

فكما يحرّم الحكم بنقل مال امرئ إلى آخر من دون دليل كاف، كذلك لا يهوّن أن نسيء الظن بالناس، فنتّهمهم بالشر والسوء قبل ثبوت ذلك بدليل قاطع، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن**))، ثم يبيّن أضرار سوء الظن ومفاسده بعبارة

(١) الحجرات ١٢.

بديعة وبيان ساحر فيقول: ((**إياك أن تسيء الظن، فإن سوء الظن يفسد العبادة، ويعظّم الوزر**))، ثمّ يعدّ سوء الظن بالمحسنين من الظلم ((**سوء الظن بالمحن شر الاثم واقبح الظلم**)). ويعد سوء الظن بالأحباء سبباً لقطع الأواصر وتوتر العلاقات، فيقول عليه السلام: ((**من غلب عليه سوء الظن لم يترك بينه وبين خليله صلحاً**)).

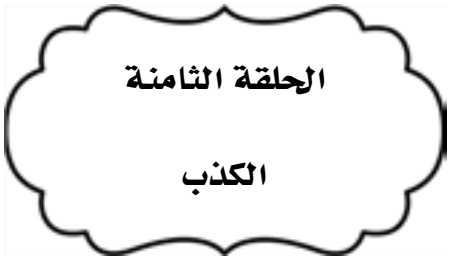
الحلقة الثامنة
الكذب

بالأخلاق ترتقي الأمم

إن الأخلاق شرط أساسي في حياة المجتمع وتكامل كل أمّة، فقد ولدت الأخلاق مع مولد الإنسانية ويكون عمرها مع عمر الإنسانيّة سواء، وليس هناك من له أدنى شك في أهميتها ولزومها؛ لسلامة روح الإنسان وراحته وهنائه وسعادته، ولا ينكر أثرها النافع والقاطع في تقوية مباني الرشد الفكري للمجتمع أو في الإصلاحات العامة. فمن ذا يتألّم من الصدق والأمانة ويبحث عن السعادة في ظلّ الخيانة والكذب؟ كفى في موقعية الأخلاق أن كلّ أمّة حتى ولو لم تكن معتقدة بدين، تنظر إلى الأخلاق بنظرة ملؤها التقديس والإحـترام، وترى أنّ من اللازم عليها في طيّ مراحل الحياة الملتوية أن تتبع سلسلة من أحكام الأخلاق في طيّ الحياة الممتدّة للبشريّة. ومع كل الإختلاف في طرقها المختارة في الحياة، كان للأخلاق أسس ومبانٍ تتشابه صورها في كل مكان وعند جميع الأمم.

يقول أحد العلماء: «إن الأخلاق احدى القوى المحرّكة لهذا العالم، وهي في أفضل صورها تجسيد للطبيعة الإنسانية في أعلى أشكالها، فإن الأخلاق صورة عن الإنسانيّة الحقيقية، إن المتفوّقين في أي جهة من جهات الحياة يعملون على أن يجذبوا إنتباه الناس إلى أنفسهم مع كل

تكريم واحترام، وسوف يثق بهم سائر الناس ويقلّدونهم في كمالاتهم، إذ يرون أنّ كل جميل في هذه الحياة يتعلق بهم، وانه لو لا وجود أولئك في هذه الحياة لما كانت الحياة لائقة للعيش فيها.

إذا كانت الصفات الوراثية «الجينية» الخلقيّة والصورية تجذب إنتباه الناس وتقديرهم لها، فإن الأخلاق توجب تعظيمهم واحترامهم لصاحبها، وتعتبر الخصائص الأولى نتائج «الجينات» الوراثية، والثانية آثار القوى الفكريّة والعملية، والفكر كما يعلم الجميع هو الذي يحكمنا مدى الحياة ويدير شؤوننا. إن مثل الذين بلغوا في حياتهم ذروة الرقيّ والعظَمة كمثل المصابيح العظيمة في دروب حياة البشريّة، فإنهم يضيئون العالم بأنفسهم ويهدون الناس إلى مسالك الفضائل والتقى.

اذا كان الأفراد في أيّ مجتمع غير مهذّبين في أخلاقهم، فإنهم لا يقدرون على الرقيّ إلى المعالي مهما توفّرت لهم من الحقوق السياسيّة والحريات، انه ليس من الضروري لأمّة تريد العيش مرفوعة الرأس عظيمة أن تكون رقعة أراضيها واسعة، فإنه قد تتّسع أمة من حيث العدد ورقعة الأرض ولكنها مع ذلك تكون فاقدة لجميع شرائط التكامل والعظمة، فإنه إذا فسدت الأخلاق في أيّة أمّة فإنهم سوف يعدمون».

إن ما يقوله هذا العالم يتفق على صحته جميع الناس، ولكن الناس يفرّقون بين العلم والعمل فواصل كثيرة، فإنهم يجعلون ميولهم الحيوانيّة في مقام العمل بدلاً عن الأخلاق العالية، فهم يفتّشون دائماً عن الشهوات المغرية التي تظهر على مسرح الحياة، كما وتتجلّى الفقاعات على سطح المياه برّاقة لمّاعة وخلّابة.

التحكّم في الغرائز والعواطف

إن الإنسان خرج من مصنع الحياة مستصحباً معه غرائز في ذاته متضادة تماماً، فهو في ذاته معترك الصّراع الدّامي بين صفات الخير والشر، وان الخطوة الأولى في تصفية الوجود الإنساني وتنزهه من صفات الشر هي أن يأسر في ساحة هذه المعركة قوى الغضب والشهوة، فإنهما منبع لسائر القوى الحيوانيّة، انه يجب على من يريد التكامل أن يحترز من الإفراط فيهما، وأن يبدّل ميوله الضارة الناشئة منهما إلى أحاسيس نافعة وجميلة، فإن الإنسان ينتفع كثيراً بعواطفه في حياته، ولكن تظهر العواطف خيّرة إذا كانت مطيعة لأوامر العقل في الإنسان. يقول أحد علماء النفس: «ان العواطف الإنسانيّة كمخزن ذي قسمين، فقسم منها ضاغطة والآخر مقاومة، فلو استطاع الإنسان أن ينصر المقاومة على العواطف الضاغطة، فإنه سوف يحكم وجوده كما يريد هو، لا كما تريد

هي».

إن الذين وازنوا بين قواهم الباطنيّة ووافقوا بين مشتهياتهم وما تحكم به أحلامهم وصالحوا بين قلوبهم وعقولهم، لا شك أنّهم سلكوا سبيل السعادة بين مشاكل الحياة بإرادة بعيدة عن الضعف والوهن والفشل. صحيح أن الإمكانيات تحوّلت اليوم إلى حالة هي في الفعالية والنشاط والحيوية والحركة والسرعة كالطاقة الكهربائية، وان البشر اليوم قد بلغ بقدرته بفضل قواه الفكرية إلى أعماق البحار والمحيطات، ولكن ما نراه مستمراً في قلب هذه الحضارة والمدنية من الشقاء والثورة حتى جعل أهلها بين أمواج من المشاكل والمصائب وألعوبة بيد الضياع واللامبالاة، لا سبب له سوى الإنحراف عن مسير الفضائل الأخلاقية والروحية.

نعم إن عاقبة المدنية التي لم تفسح المجال لأحكام مكارم الأخلاق، بل شطبت عليها، لا تكون بحكم قانون التوازن والتعادل سوى الفناء والدمار. إن بقاء الشقاء والنقص في المجتمعات اليوم مظهر لإحساس الناس بالحاجة إلى القواعد الخلقية، وهي قادرة على ان تنفخ إن أتيح لها الروح والحياة في جسم هذه المدنية الميتة، وتهب لها القوى الحيوية.

الكذب وما وراءه

لنتعرف على الأخلاق واثرها إلى أضرار الكذب بنفس مدى منافع الصدق وخصائصه المستحسنة، وعلى عكسه تماماً تكثر مضار الكذب وقبحه، فالصدق من أبرز الصفات الحسنة والكذب من أقبحها تماماً، فإن اللسان ترجمان الإنسان عن أحاسيسه الداخلية، فلو كان الكذب ناشئاً من الحسد والعداوة فهو من رشحات الغضب الخطيرة، ولو كان من الطمع أو العادة فهو من شر آثار الشهوة المتأججة في الإنسان.

لو تسمم لسان إنسان بالكذب وظهر رجسه عليه، كان على شرف صاحبه، كما تكون رياح الخريف لأوراق الشجر، وكما تكون الصاعقة لصرح ممرد من قوارير، إن الكذب ينمّي في الإنسان رجس الخيانة، ويطفئ فيه مصباح وجدانه وانه ليفعل الأعاجيب في قطع أواصر الوحدة والوفاق ويجوب شيوع النفاق، وان قسطاً كبيراً من الضلال إنما هو نتيجة الدعاوي الجوفاء والكلمات الفارغة.

فإن مغرضي السوء إنما يصلون إلى تطبيق مقاصدهم الإنتهازية بما يغطّون به الحقائق من الكلام المغري الجميل والمعسول، وإنما يأسرون البسطاء السذّج بتلقيناتهم المسمومة، وان الكذوب لا يدع لنفسه فرصة التأمل والفكر، فهو لا يفكر في عاقبة أمره؛ زعماً منه أنه سوف

لا يطّلع على سرّه أحد أبداً، فهو يصاب في كلامه بالخطأ والتناقض، وسوف يواجه الفضيحة والإنكسار والفشل والخجل، فليس بعيداً عن الصواب ما جرى على الألسن مثلاً يُضرب «لا ذاكرة لكذوب».

إن من عوامل شيوع هذه الخصلة الذميمة التي تسمّم أخلاق المجتمع ما قالوه: «الكذب المصلح خير من الصدق المفسد»، فإنه أصبح حجاباً يضرب على هذا الدنيئة، فكثيراً ما يستند الناس لتبرير كذبهم المشين إلى هذا المثل، غافلين عما يشترطه العقل والشرع في هذا المعنى، فالذي يقول به العقل والشرع هو: أنّه إذا كان الدم أو العرض أو المال الخطير لمسلم في معرض التلف وجب الدفاع بكل وسيلة ممكنة عن وقوع الخطر باحدى هذه الثلاث من مسلم، حتى ولو بالكذب، ولكنّه للضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، ولكنها أيضاً تقدّر بقدرها، فلا يجوز التجاوز في الكذب عن مقدار الضرورة. أما إذا وسّعنا دائرة المصلحة بمقتضى منافعنا الشخصيّة ومشتهياتنا النفسيّة، وأوردنا أن نستند إلى هذه القاعدة في كل مصلحة ومنفعة وشهوة، إذن فلا يبقى أيّ كذب بلا مصلحة كما قال أحد كبار الكتّاب: «لكلّ شيء سبب، وبالإمكان أن نخلق لكلّ عمل عللاً وعوامل، وحتى المجرمون المحترفون باستطاعتهم أن يذكروا لأجرامهم عند محاكمتهم

أعذاراً وأدلّة». وعلى هذا فلكل كذب يذكر في العالم منافع ومصالح، أي أنّ لكل كذب جهة نفع وخير، ولو لم يكن له ذلك لزم أن يكون لغواً وعبثاً، واذا كان كذلك فلا يكون فيه كثير ضرر، وهذا إنما يأتي من حيث أنّ الإنسان بفطرته يحسب كل ما يتفق مع منافعه الشخصيّة خيراً وصلاحاً، فاذا رأى منافعه الشخصيّة في خطر من الصدق، أو تصوّر خيراً في الكذب، كذب ولم يتحرّج، إذ انه رأى في الصّدق شراً وفتنة وفي الكذب خيراً وصلاحاً.

ما هو النفاق؟

النفاق من أقبح الرذائل الأخلاقية الذميمة من كل جهة. إنّ الطبيعة الإنسانية المستعدة للسعادة والحرّية والرقي إلى أعلى مراقي الحياة حينما تتلوّث بالكذب ونكث العهد وخلف الوعد، يجد النّفاق لنفسه مجالاً واسعاً للتوغّل في هذه الطبيعة الملوّثة، فيتوغّل فيها حتى يصبح كالمرض المزمن في النفس. إن النّفاق يمنع من الوصول إلى الحقيقة والسعي في سبيلها، ويصبح سدّاً منيعاً دون حصول الإنسان على الصفات الخيّرة، ومن الطبيعي أن يكون كل ما يسدّ سبيل الرشد والكمال النفساني مما يناقض الحياة السعيدة التي لا تحصل إلا بكمال الروح.

إن النفاق نوع من الأمراض الروحية من قبيل عقدة الحقارة، ولعلّ أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى هذا حيث قال: ((**احذروا أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون المزلّون، قلوبهم دوية، وصحافهم نقيّة**)). ويقول أحد الكتّاب: «هناك من يخالف لا لشيء الاّ ليعرف، لم يتحقق في عقيدته ولا يؤمن بها ولكنّه يرجح النقد في عقائد الآخرين على الصمت والخمول؛ لأنه يعسر عليه أن يتحمل عدم إعتناء الآخرين به. وهناك من إذا رأى أن الناس لا يتوجّهون إليه اتخذ طريق النّفاق ستاراً للخلاق وإثبات الوجود».

إن النفاق آفة خطيرة تهدد شرف الإنسان وكرامته، وتجرّه إلى اللامبالاة والإنحطاط الخُلُقيّ، وتعوّض صاحبها عن ثقته بنفسه، وهي ضروريّة للموفقيّة في الحياة من سوء الظن والتشاؤم والقلق والإضطراب في أعماق قلبه.

إن من بلغ في إنحرافه الخلقيّ إلى نهاية الحضيض يسري نفسه للناس بمهارة فنيّة أنه يريد الخير لهم، واذا كان بين شخصين شحناء، عاشر كليهما وهو يريهما وجه المحبّ المخلص ولسان الودود، وانتقد الآخر ولامه ليظهر لهذا حبّه وودّه وإخلاصه، بينما ليس له مع أيّ منهما أيّة رابطة معنويّة أو روحيّة، بل هو يكذب لهما وعليهما ويريهما ويتظاهر لهما بما يريدان وان المماشاة بالتصنّع والرّياء مع عقائد الآخرين والإمتناع عن إظهار الحقّ والحقيقة في موارد اللزوم لهو من خصائص المنافقين أيضاً.

من هو المنافق وكيف تكون حياته؟

إن المنافق أخطر بكثير من العدوّ اللدود، ويقول أحد المفكرين الكبار: «ان من خصائص الأعداء أنّهم أعداء في الظاهر والباطن، فإن العداوة ذات لون واحد وليست ذات لونين مختلفين، وليت الأصدقاء أيضاً كانوا كالأعداء بلا رياء، ولا شك أنّ الاصدقاء المنافقين أسوأ من

المنافقين».

وقال الامام أمير المؤمنين عليه السلام: ((**المنافق قوله جميل وباطنه عليل**)).

وحيث لا يجد المنافق لنفسه سناداً يستند اليه فهو في حيرة دائمة، ومن هنا نجد رسول الله صلى الله عليه وآله قد شبّه المنافق مجسّداً هذا المعنى إذ قال: ((**مَثَل المنافق كمثَل الشاة العائرة بين الغنمين**))، وقد بيّن صلى الله عليه وآله لنا علائم المنافق فقال: ((**وللمنافق ثلاث علامات إذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان**)).

وقال الامام الباقر عليه السلام: ((**بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطرى أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطى حسده، وإن ابتلى خذله**))، وأشار الامام أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفة أخرى من صفات المنافق، فيقول عنه انه يدافع دائماً عن نفسه ويطعن على الآخرين: ((**المنافق لنفسه مداهن، وعلى الناس طاعن**)).

إن المرائين والمنافقين يفكّرون في أنفسهم دائماً ولا يفكرون فيمن سواهم أبداً، يفكرون في أنفسهم وأعمالهم وأحوالهم حتّى يصبح وجودهم الحقير والضئيل معبودهم العالميّ الكبير.

إن حياة المنافق خليطة بالذلة والصغار، ان من اعتاد النّفاق لا يستطيع أن يشغل بودّه أيّ شيء من قلوب من يعاشرهم، وان سعيه في

إخفاء الحقائق لا يدعه آمناً من القلق والإضطراب، وانه ستظهر ماهيّته في أفعاله يوماً ما لا محالة. وان احدى علل شقاء المجتمع هو شيوع الرياء فيهم وعدم الصدق والصّفاء بين مختلف طبقاته، واذا تسرى النفاق في بناء المجتمع وخيّم على سماء القلوب، فبالاضافة إلى ما يبدو في طبيعة أفراده من الإختلاف والإنحطاط ان هذا المجتمع لا يكون الاّ في طريق السقوط والفناء.

إنّ الصفاء والصدق من علائم الإنسانيّة والضمير الطّاهر، وهو من أنبل الصفات في الحياة، ان هذه الصفة التي تنشأ من الروح الطاهرة توجب تماسكاً في الشخصيّة، وصلحاً واتحاداً وقوّة في الأمّة، فطبيعيّ أن يحبّ الإنسان أصدقاءه المخلصين أكثر بكثير ممن يشكّ في إخلاصهم، وتبلغ هذه المحبّة للمخلص عكسيّاً بمقدار ما تبلغ اليه الكراهية من معاشرته للمنافقين.

أحرقوا بيوت النفاق

حينما كان الإسلام يتقدم بسرعة إلى الأمام، أخذ حزب المنافقين الذين رأوا موقعهم مهدّداً بالخطر أكثر من سائر الأحزاب المعارضة، يسعون في تحطيم أركان الحكومة الاسلاميّة. انهم كانوا يعاهدون رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنّهم كانوا يتخلّون عن وظائفهم عند العمل، وكانوا

يستهزؤن بالمؤمنين. ان هذه الأقليّة المفسدة المخرّبة التي لم يكن لها ايّة شخصية معنوية أو أخلاقية، لم تكن تتحمل إيمان الناس وإخلاصهم لرسول اللهﷺ. وكان على رأس هؤلاء أبو عامر الرّاهب الذي كان قبل هجرة رسول اللهﷺ إلى المدينة زعيم أهل الكتاب وكان قد حصل من هذا الطريق على سُمعة بين الناس، وكان قبل قدوم النبيﷺ يبشّر الناس بقدومه، ولما قدمﷺ أسلم في أوائل الناس، ولكنّه حينما رأى أنّه سيفقد موقعه الإجتماعي بتوسعة نفوذ أمر النبيﷺ لم يستطع أن يتحمّل هذا الوضع، فانتقل إلى مكة، وأخذ يشرك مع المشركين في حروبهم في بدر وأحد، ثمّ هرب إلى الرّوم، وكان هناك يخطّط الخطط لإقتلاع شجرة الإسلام، وبوحي منه بنى أصحابه بالمدينة «مسجد الضّرار»، ولم يكن لأحد أن يبني مسجداً إلاّ برخصة من النبيﷺ، فتزعّم أحدهم لأخذ الرخصة من رسول اللهﷺ بذلك، وأذن لهم رسول اللهﷺ وبنى المسجد، وحينما رجع رسول اللهﷺ من غزوة تبوك دعوه لافتتاح ذلك المسجد، وكانوا يترقبون أن يفعلوا ما نووا من الشرّ برسول اللهﷺ، ولكن الله أطّلع رسولهﷺ على ذلك، فامتنع من الذهاب إلى المسجد وأمر بتخريبه ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى**

الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1]، ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[2]. وهكذا فشل تخطيطهم الخيانّي، وأحرق أوّل بيت وضع للنفاق.

إن القرآن الكريم انتقد هذه العدّة اليسيرة وهجم عليهم وطردهم ولامهم في موارد مختلفة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[3].

ان أفكار المرء تبدي للملأ صورته الواقعيّة، فلو أراد أحد أن يخفي بالرياء والتصنع ما في قلبه لم يوفّق إلى ذلك، فإن حقيقته وماهيّته ستبدو في النهاية بل منذ البداية. وعدّ الإمام الصادقؑ من مواعظ لقمان لابنه أنّه قال: ((**وللمنافق ثلاث علامات يخالف لسانه قلبه، وقلبه فعله، وعلانيته سريرته**)).

(١) التوبة ١٨.
(٢) التوبة ١٠٧.
(٣) البقرة (٨-١٢).

الحلقة العاشرة

أضرار الغيبة في المجتمع

أن نتقدم لا أن نتراجع لنرتقي

لا شك أن مجتمعاتنا اليوم مصابة بأنواع من الإنحرافات الروحية، مرتطمة في بحر من المفاسد النفسية، وقد تقهقرت في أخلاقها بمقدار ما تقدّمت في تأمين وسائل الحياة لنفسها، وهي بمرور الأيام تزداد أسقاماً ملأت محيط الحياة. فالذين سعوا في سبيل الفرار من الآلآم سعياً حثيثاً تراهم قد آل أمرهم في النهاية إلى التورّط في الآثام وإلى اللجوء إلى أحضان الرذائل؛ كي يخفّفوا عن أنفسهم الآلآم الروحيّة ويقللوا القلق والإضطراب. وهيهات أن تشعّ شمس السعادة النيّرة في حياة هؤلاء. وكأنما تحرّر آحادهم عن جميع القيود والشروط، وجعلوا يتسابقون في الإنحطاط، ونحن إذا لاحظنا جيّداً، رأينا أنهم يستعملون وسائل التقدّم المتزايدة يوماً بعد يوم في ضدّ ما وضعت له، وقد أصبحت المظاهر الماديّة محور المنى والآمال، وأصبح ظلام الآثام مضللاً على هذا المجتمع فيا ليتهم كانوا يصرفون جزءاً من هذه الثروة الطائلة -التي يصرفونها في الضلال والضياع- في توسعة نطاق الأخلاق. والقوانين الأخلاقية ثابتة لا تقبل التبديل، ومع ذلك فهي دائماً في معرض التغيير والتحوّل، تبدو كلّ يوم في شأن، وواضح من دون بيان أنه «ما لم تصبح الفضيلة مقياس الشخصيّة في مجتمع ما فإن الأفراد في ذلك المجتمع

سوف لا يلتفتون إليها أبداً، بل انهم يتأثّرون بالعقل الجماعيّ في بيئتهم فيتّبعون كلّ ما أقبل عليه الآخرون من دون أن يفكّروا في عواقبه السيّئة». وينبغي أن نعلم من هنا أن المدنية والحضارة الحديثة لا تستطيع أن توجد الأخلاق الفاضلة الصحيحة، ولا تقدر على أن تضمن سعادة المجتمع وصلاحه. يقول أحد العلماء: «انّنا بحاجة إلى عالم يقدر فيه كل واحد منا على أن يجد لنفسه المكان المناسب في الحياة، ولا يفرّق فيه بين المادة والمعنى، فنعلم كيف نعيش، اذ إنّا قد علمنا الآن أن السير في درب الحياة بدون دليل أمر خطير، والعجيب أن التفاتنا إلى هذا الخطر كيف لم يبعثنا على السعي في سبيل تحصيل الوسائل للعيش المعقول في هذه الحياة». والحقيقة أن الذين يلتفتون الآن إلى هذا الخطر عدد قليل من الناس، وان القسم الأعظم منهم يعيشون في اتّباع أهوائهم وهم مهما توفّرت لهم التكنولوجيا المادّيّة من وسائل الحياة في سكر عظيم، ولا يرضون بأن يدعوا بعض هذه المزايا الحضاريّة والمدنيّة. إن الحياة اليوم أصبحت كمياه نهر عظيم تسرّبت إلى منحدر من الأرض، فهي تنحدر خلف آمالنا وأمانينا، وبالتّالي تجرّ إلى أقسام من الإنحطاط والفساد، لإرضاء الأمنيات والمنافع الشخصيّة العاجلة والأفراح.

أضرار الغِيبة

إن إحدى المفاسد الإجتماعية التي نبحث عنها هنا هي الغيبة. ولسنا بحاجة إلى أن نوضّح معناها الإصطلاحيّ، فإنه يدرك معناها كل عالِم وجاهل بكل يُسر وسهولة.

إن أول اضرار الغيبة تحطيم الشخصية المعنوية والوجودية لنفس المتكلّم، فإن الذين يخرجون أفكارهم من مسيرها الطبيعي سوف يفقدون إتزان الفكر والتنظيم الخلقي الرفيع، وهم بإشاعة المعايب والأسرار يجرحون قلوب الناس.

إن الغيبة تحطّم صرح الفضيلة الإنسانيّة، وتفقد الإنسان سجاياه وملكاته الفاضلة بسرعة هائلة، بل انها تحرق عروق الفضائل في قلب القائل وتعدمها، وتنحرف بمسير الأفكار الطاهرة إلى حيث تنسدّ على الإنسان نوافذ العقل والفهم. واذا لاحظنا أضرارها في المجتمع نراها قد حطمت المجتمع تحطيماً عظيماً، وقد لعبت دوراً مهمّاً في إيجاد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، بحيث أنّها لو توسّعت في أمّة لحطّمت عظمتها وسمعتها وأوجدت بينهم شقّاً عميقاً وكسراً لا يجبر، ونأسف أنّه يجب علينا أن نعترف أن الغيبة اليوم قد وجدت لنفسها مكاناً بين جميع الطبقات، فإنه كما ترتبط اليوم حوادث الحياة كذلك لو بدى على

أمّة أيّ إنحراف روحي أو نفسي فهو يسري إلى سائر الطبقات بسرعة، وعلى أثر توسّع نفاق الغيبة نرى اليوم أن اليأس والشؤم قد خيّم على أفكار الجميع. فقد فقدوا الثقة المتبادلة بينهم وعوّضوا عنها بنوع هائل من فقدان الثقة عجيب، وعلى هذا نقول انه ما لم يتنوّر المجتمع بنور التفكير الاخويّ بصفات عالية، فلا مجال فيه للصفاء والوحدة. وان مجتمعا لا يتنعم بنعمة الأخلاق الحميدة لهو بعيد عن مزايا الحياة الحقيقية.

أسباب هذا المرض الروحي وعلاجه

فإن الغيبة وإن كانت من الذنوب العملية ولكنها ترتبط بروح الإنسان إرتباطاً مباشراً، فهي علامة على إضطراب نفسي خطير، يجب أن نفتّش عن منشئه في زوايا الرّوح والنفس. وقد ذكر علماء الأخلاق للغيبة أسباباً أهمّها الحسد، والغضب، والعجب، والكبر، وسوء الظن، ولا شك أنّ جميع الأعمال التي تصدر من الإنسان كأثر من آثار وجوده هي مسبّبة عن حالات مختلفة متحقّقة في باطن الإنسان ودخيلة نفسه، وعلى أثره تحقق احدى هذه الأوصاف المذكورة التي تكمن في النفس الإنسانيّة، فهي كالجمر تحب الرماد، عند نطق اللسان بالغيبة، فإن اللسان ترجمان الإنسان. وإذا ترسّخت صفة في النفس الإنسانية أعمت

عينيه وحكمت على أفكاره، وإن شيوع مرض الغيبة بين الناس إنما هو على أثر تكرر هذا الفعل من دون إلتفات إلى ما يترتب عليه من العقوبة، فإنا نرى كثيراً من الناس يحترزون عن سائر المعاصي ولا يبالون أن يرتكبوا هذا الذنب العظيم للأسف!

وإن تكرار العمل بلا تعقّل لعواقبه يصل بالإنسان إلى حالة لا يستطيع معها أن يغضّ بصره عما يشتهي، حتى ولو كان ملتفتاً إلى حقيقة العمل عالماً بآثاره، وحتى لو كان بفطرته في طلب الكمالات ولكنّه مع ذلك يبتعد عن العمل في سبيل الكمال، اذ لا يرضى أن يتحمّل في سبيل نيل السعادة أدنى تعب أو ألم، ومن هنا فهو يقع فريسة تحت حكم الشهوة الدنيئة. إن الذين لا يلتزمون بشرفهم وبحفظ شرف الآخرين لا يتقيدون بشريعة الأخلاق، ومن جعل الحياة ساحة شهواته متجاوزاً على حقوق الآخرين لخليق بالشّقاء.

وإن ضعف الأخلاق من ضعف الإيمان، فإن ظهور الخُلق وبقاءه من آثار العقائد، فإنه ما لم يستند الإنسان إلى الإيمان لا يجد باعثاً على الفضيلة ولا ملزماً بالتقيّد بالأخلاق. يقول أحد الكتّاب عن قدرة الإرادة: «إننا حينما نريد أن نحارب عادة سيّئة يجب أن نجسّد في أنفسنا عواقبها الوخيمة، ثم نتصوّر المنافع والمصالح التي تعود الينا، على أثر

ترك تلك العادة، ثم نجسّد في أذهانّنا مسارح الحياة والمواقع المختلفة التي أصبحنا نحن فيها ضحية لتلك العادة. فاذا شاهدنا في أنفسنا هذه المسارح انتصرنا على الوسوسة لتلك العادة الضارّة بإحساسنا للذّة في تركها وطردها». وبوجود بذور التكامل في النفس الإنسانيّة وتجهيزها بوسائل الدّفاع، نستطيع أن ندرك منشأ الضّلال والضّياع، ثم ندفعها عن ألواح أرواحنا ونفوسنا، ونوجد سدّاً منيعاً أمام ميولنا وأهوائنا غير المتناهية.

إن أعمال الناس مظاهر شرفهم وواقعيّتهم، فإنها هي التي تُبدي لنا الشخصيّة الواقعيّة لكلّ إنسان، فاذا كان الإنسان مريداً أن يرى الله مراقباً لأعماله، وكان عليه أن يكون خائفاً من جزائه الاخروي، مطمئناً إلى أنّ كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها. كما أنّ المجتمع بحاجة إلى أدوات العيش لإدامة الحياة، كذلك –وبنفس المقدار– بحاجة إلى الصفاء لدوام الروابط الروحية بين المجتمع، ولو كان المجتمع يعمل بوظائفه الإجتماعية الثقيلة لاستفاد من المعنويات في سبيل التكامل فائدة كبرى، انّنا يجب علينا أمام الأفكار الضارّة أن ننمّي في أنفسنا الأفكار السامية؛ كي نخرج أرواحنا من الظّلمات إلى النّور، وبصيانة ألسنتنا عن الغيبة نخطوا أولى الخطوات في سبيل السعادة. ويجب علينا

أمام إنتشار المفاسد في المجتمع أن نوجد في الناس نهضة نفسية، نحيي بها روح رعاية حقوق الآخرين، وبذلك نبسط فيهم أصول الإنسانية والمعنوية، وأن نخطو في سبيل تحكيم الأسس الأخلاقيّة التي هي رمز بقاء المجتمع خطوات أساسيّة حسب المستطاع. واذا نحن أوجدنا في الأفراد نهضة نفسيّة تأكدت لديهم روح المطاوعة، وبهذه الروح التزموا بجميع المقررات الإجتماعية والأخلاقية.

الحلقة الحادية عشرة

الغفلة عن النفس

لو شئنا لاهتدينا وأصلحنا من أنفسنا

عزيزتي القارئة، إن من النقائص الأخلاقيّة الكبيرة للإنسان غفلته عن عيوب نفسه، وان الضلال والضياع في الأكثر نابع من الجهل والغفلة. فكم سكنت في النفس عند غفلتها عن نفسها صفات ذميمة أصبحت أساس الشقاء؟ وحين يصبح الإنسان عبداً لنفسه الجاهلة يميت في نفسه روح الفضيلة، فإنه يصبح ضحية لميوله وشهواته المختلفة فيبعد عن حريم السعادة ويحرم من نعيمها ولا ينفع، والحال هكذا أيّ نوع من الإرشاد والهداية الأخلاقية.

إن اول شرائط إصلاح النفس درك عيوبها، فإنه إنما يستطيع الإنسان أن يقطع حبائل الرذائل وأن ينجو من أخطار عيوب النفس التي تنتهي إلى الشّقاء فيما إذا اطّلع عليها. وان النظر في خصائص النفس الإنسانيّة في سبيل تربيتها أهم ما يكون، فإنه لا يبلغ الإنسان إلى كماله المعنوي والأخلاقيّ الاّ من هذا السبيل فحسب، فإن النّظر في النفس يمكنّه من درك نقائصها وكمالاتها، ومن أن يخرج الصّفات الشيطانيّة من خبايا نفسه من بين الصفات المختلفة الكثيرة، وأن ينزّه مرآة نفسه من لوث الآثام بتصفيتها تصفية أساسية.

انّنا إذا لم نلاحظ صورتنا الواقعية في مرآة أعمالنا بالتّسامح

والتّساهل، فقد ارتكبنا بعدم الإعتناء بذلك خطأ كبيراً غير مغفور، فانّنا مكلّفون قبل كلّ شيء أن نرى خصائصنا الذاتية ونوعيّة صفاتنا النفسية، حتى نعرف بذلك تلك المعايب التي عرقت ونمت وترعرعت فينا في غفلة عنا، وإننا نقدر على أن نقلع هذه العروق من أنفسنا بالسعي المتواصل، وأن نمنعها من الظهور في حياتنا، أو أن نفسح لها المجال بل نوسّعها إستطاعة واستطالة وقدرة. ولا شكّ في أن إصلاح النفس وتهذيبها ليس أمراً سهلاً، ولا يتحقّق ذلك بسهولة أبداً، بل انه يستلزم تحمّل مشاقّ طويلة واستقامة على الخط الطويل. ومن أجل قلع عروق العادات الخطيرة الضارّة وبناء الصفات المطلوبة يجب أن يقترن مع معرفة العيوب إرادة قويّة لا تتزلزل، تهدي الإنسان إلى الهدف المطلوب. ونحن كلّما نظّمنا أعمالنا تنظمت أفكارنا بها أيضاً واعتدلت واستقامت، وان لكل خطوة في هذا السبيل أثرها النافع القطعي الذي يتجلى لنا ويظهر بعد إنتهاء العمل.

إن أكثر الطرق أثراً في أن يصبح عملنا في الحياة مقبولاً لدى عقولنا، أن نسير غور برنامج العمل اليومي كلّ صباح وأن ندقّق النظر في نتائج الأعمال الحاصلة كل مساء. فكما نتوقع أن نعمل العمل المعين في الساعة المعينة وأن نختمها كذلك وأن نأكل كذا وأن نحصل على كذا

ونسمع كذا ونرى فلاناً. كذلك يجب أن نتفائل كيف ننفع الآخرين، وكيف يجب أن نكون في أعمالنا على إعتدال وتوازن.

نفسي وما أنا لا غيري وما فيه

إن الأخلاق السيئة مكروهة كالأوساخ الجسدية تماماً، فكما يجب علينا أن ننظف أبدانّنا من أوساخها، كذلك يجب علينا أن ننظف أخلاقنا من أرجاسها، حيث انها تصرف دقائق من أعمارنا لتربية أخلاقنا وأفكارنا وأرواحنا، انّنا بالتفكّر في الكيفيّة التي يجب أن نتّخذها لأعمالنا، وبالسعي في الدقّة في عدم التخطي عن تطبيق الخط المرسوم نستطيع أن ننمي عقولنا وإرادتنا. وبهذا الترتيب ينبسط في عمق شعورنا مرآة مختفية يستطيع كلّ واحد منا أن يرى نفسه وحدها فيها بلا حجاب.

إن توفيقنا في إجراء مقررات الحياة يرتبط بحياتنا الداخلية، انه يجب على كل إنسان سواء كان فقيراً أو غنيّاً، شيخاً أو شابّاً، عالماً أو جاهلاً أن يثبت في فكره ما عمله من خير أو شرّ كلّ يوم، كما ينظّم التاجر دفاتر وارداته وصادراته ومصروفاته، وكما ينظّم العالم أوراق تجاربه بدقة متناهية. وبإجراء هذه الطرق التربوية بصبر تتغيّر عندها أرواحنا بل وأجسامنا أيضاً.

إن الشخص الإيجابي البنّاء لا يهمل طاقاته ومساعيه دون ان يؤديها إلى سبيل يليق بها، وكلّما كان ذا شخصيّة كريمة أثبت للآخرين أيضاً كرامة وحقوقاً، واتحرز مجدّاً عمّا ينتهي إلى جرح عواطفهم، فإنه يدرك أنّ أحسن شيء يعرّفه إلى الآخرين هو سلوكه الذي يبدو منه في معاشرته معهم. سُئل أحد الكبار «ما أصعب الأمور وما هو أيسرها؟»، فقال: «أصعبها أن يعرف الشخص نفسه، وأيسرها أن ينتقد الآخرين ويعيّرهم».

إن تعيير الآخرين من الصفات التي تلوّث حياة الإنسان وتحطّ من شخصيته الخُلقيّة، إن في طبع بعض الناس شهوة مشؤومة تبعثهم على أن يتجسسوا عن عورات الآخرين وزلّاتهم وأسرارهم، وعلى أن ينتقدوها ويلوموهم عليها ويسخرون منهم بها، مع أنّ فيهم منها عيوباً كثيرة ونقائص تترجّح على ما فيهم من الفضائل كمّاً وكيفاً، قال الإمام علي عليه السلام: ((**من نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره**))، ولكنهم مع ذلك يغفلون عن عيوب أنفسهم ويشتغلون بعيوب الناس من دون أن ينظروا في تهذيب أنفسهم منها.

إن الدّوافع التي تبعث الإنسان على عيب الآخرين نوع من –دناءة الطبع– تتقوى بالغرور، والعجب والكبر والرضا عن النّفس، وتوجب

كثيراً من الأخطاء في الحياة، فإن الآثار التي تتولد من هذه العقدة في أخلاق الإنسان تجرّؤه على إصدار الكثير من الأحكام الخاطئة قاطعاً بها.

إن المستهزئين يصرفون أنظارهم وأفكارهم في طريق لا يرضى به العقل ولا الشرع، فإنهم يصرفون همّهم في أن يراقبوا أعمال من يعرفونه من أصدقائهم؛ كي يجدوا فيهم نقطة ضعف فينقدونهم ويعيّرونهم، وبذلك يقللون ما استطاعوا من قدرهم ومنزلتهم، وهم بصرفهم أفكارهم في هذا الأمر يفقدون الفرصة الكافية للنظر في عيوب أنفسهم، ولهذا فهم لا يسيرون في طريق الهداية والصلاح.

إن الذين يفقدون الشجاعة الكافية لا يتقيّدون بأيّ شيء ولا يلتزمون بحفظ كرامة الآخرين، فهم لا يستطيعون أن يعيشوا في صفاء وحتى مع أقرب الناس اليهم، فهم كما يذكرون معايب البعداء عند الأصدقاء، كذلك حين يرون الجوّ خالياً يذكرون نواقص أصدقائهم وأخطاءهم وينتقدونهم، ولذلك لا يستطيع هؤلاء أن يجدوا لأنفسهم أصدقاء واقعيّين يستقرون في كنف عواطفهم ويرتوون من منبع محبتهم وعنايتهم. إن كرامة الإنسان رهينة بما كسبت يداه، ومن يعتدي على كرامة الآخرين أصبحت كرامته معرّضة للضياع.

من الممكن أن لا يلتفت المعيّب على الآخرين إلى نتائج عمله القبيح هذا، لكنّه سوف لا يمكنه أن يحترز عن رد فعل عمله هذا في المجتمع، فكم يولّد له عمله هذا من الحقد والعداوة والبغضاء ما لا يستثمر منه الا الندم ولات حين مندم، فإن الكلام كما قالوا ليس كالطير إذا طار أمكن أن يردّ إلى وكره.

إن من يريد أن يعاشر الناس يجب أن يتعرّف على وظائفه وتكاليفه، ومنها أن ينظر دائماً إلى محاسن الأشخاص وأعمالهم البارّة فيقدّرهم ويمجّدهم بها، ويجب عليه أن يغيّر من صفاته وعاداته ما يحطّم كرامة الآخرين ويتنافى مع أصول المحبّة، فإن المحبّة لا تدوم الاّ مع المحبّة والإحترام المتبادل بين الطرفين. فمن اعتاد على إلقاء الستر على عيوب أحبّائه وأصدقائه استقامت مودته واستحكمت محبّته، فاذا رأى في أحدهم نقطة ضعف نبّهه في فرصة مناسبة إلى تلك النقطة غير المرغوبة، وذكّره بلزوم تغييرها بدل أن يعيّره بها في غيابه.

إن الإسلام فرض على المسلمين رعاية أصول الآداب والأخلاق؛ لحفظ وحدتهم، ومنعهم عن الهمز واللمز من بعضهم لبعض، مما يسبب التفرقة وتوتّر العلاقات والروابط الاخويّة بينهم، فيجب على المسلمين أن يكون كل واحد منهم محافظاً على شؤون الآخرين ومحترزاً

عن تحقيقهم وإهانتهم.

قال الامام الصادق(عليه السلام): ((**ان المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد**))، وقال والده الامام الباقر(عليه السلام): ((**كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، أو يعيّر بما لا يستطيع تركه، أو يؤذى خليله بما لا يعنيه**))، وقال جدّهم الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام): ((**ايـاك ومعاشرة مبتغى عيوب الناس، فإنهم لم يسلم مصاحبهم منهم**))،والإنسان وان كان طبعه أبيّاً عن قبول النقد والإستماع إلى عيوبه، لكنّه يجب عليه أن يلتفت إلى النقد الصحيح البنّاء ببالغ السرور. قال الامام أمير المؤمنين(عليه السلام): ((**كفى بالمرء غباؤه أن ينظر من عيوب الناس ولا ينظر إلى ما خفى من عيوبه**)).

الحلقة الثانية عشرة

الحسد

مرض الحسد

عزيزتي القارئة إن الإنسان في هذه الحياة المضطربة يعيش في حركة دائبة بين أمواج من المشاكل والمصائب، يهوّن على نفسه وجسمه المشاقّ والصعاب والشدائد، علّه يقتطف من بستانها أزهار الأمل المُشرق. فهو ما لم تنقطع صلته بالحياة بمدية الموت، وما زال يرى أمامه نافذة من الأمل يسعى دائباً وراء السعادة. والخلاصة أنّ ضياء الأمل هو الذي يهب لصاحبه الحياة ويجعل مرارتها حلاوة له.

فأحدنا يأمل الوصول إلى الغنى والثروة ويسعى للوصول إليها -سعياً لا يعرف الكسل- والآخر يحبّ الشهرة والرئاسة، فهو يسعى للوصول إليها أيضاً، وان حوائج الناس ترتبط بحوائجهم الجسدية ومدى تكاملهم الروحي والنفسي، وان الأيام تتفاوت بتفاوت التفكير في كل أحد، ولكن يجب الإلتفات إلى أنّ هذه الحوائج إنما توجب لنا السعادة فيما إذا كانت متلائمة مع حوائجنا الروحيّة ومطمئنة لاعوازنا الفكريّ، آخذة بمستوى معارفنا إلى الأعلى، متّقدة كالضياء في دروب الحياة، منقذة للشخص عن ظلمات الهـول، مخلّصة له عن الشقاء والتعاسة.

وقد تطغى إحدى الغرائز كالحرص وطلب الرئاسة فتؤسس

في النفس أساس شقائها، وان احدى هذه الغرائز التي تبدو كشهوة منحرفة عن مسيرها المعتدل، فتأسر الوجدان وتمنع الإنسان من الوصول إلى آماله الواقعية لهو الحسد، أو إرادة السوء للآخرين. إن الحسود لا يستطيع أن يرى أحداً في كنف الرفاهية، فهو يحسّ في نفسه بثقل وضغط شديدين ناشئين من نظرة المتشائم إلى نِعَم الآخرين. وكما يُقال عن أحد العلماء أنّه كان يقول: «ان الحسود يهزل ويضعف من سمن الآخرين»، إن الحسود يصرف أيّام عمره في إذابة نفسه حسرة على ما لم يجده ووجده الآخرون، فيتأوّه عليها ويتأسف لها، ويتمنّى لسائر الناس الشّقاء والنكبات، ويحاول التزوير والحيل في سبيل سلب سعادتهم.

يقول أحد كبار الكتّاب: «إن نفوسنا كمدينة في الصحراء بلا قلعة ولا حصار، فهي نهب بيد سرّاق السعادة. إن بإمكان أقلّ الرياح خطراً أن تجعل بحر أرواحنا متلاطماً مضطرباً، وان غير واحد من أعداء النفس من الهوى يدخل بيوت نفوسنا فيأمر وينهى حتى أنفاسنا الأخيرة. ويعرف كل جاهل أنّه إذا أحسّ بألم في رأسه فعلية أن يراجع الطبيب المعالج، ولكن الذي يصاب بداء الحسد يجب أن يحترق ثمّ لا يجد لنفسه الطبيب المعالج!!».

إن الحسود يجعل نعمة الآخرين هدفاً فيسعى لإزالتها عنهم بشتّى العناوين والحيَل، وهو في هذا العمل فريسة لإحساسه الدنيء من دون أيّ التفات أو تحقيق.

فهو أحياناً يكشف عن نفسه الخبيثة بإشاعة التّهم والأكاذيب على المحسودين، فاذا لم يرتوِ هواه هذا ورأى أنّ الحياة تُعاكس إرادته، لا يبعد منه أن يتجاوز حتّى على حرّيّاتهم، بل وحتّى على أرواحهم فيحطمها في سبيل ميوله غير المحدودة.

آثار الحسد المدمّرة

ليس الحسود -عزيزتي القارئة- خارجاً عن نطاق الإنسانيّة فحسب، بل هو أذل من الحيوانات وأنزل، فإن من لا يفكّر في آلام الآخرين لا يكون من المصاديق الواقعية للإنسان، فضلاً عمّا إذا استبشر بحرمان الآخرين من نعمهم وحَسَب ذلك الحرمان إنتصاراً لنفسه، فالحسود يحترق بنار الخيبة والحرمان.

إنّ من أهم عوامل التقدّم والإنتصار في ساحة الحياة لهو النفوذ إلى قلوب الآخرين والتأثير فيهم، فإنّ من استطاع أن يحكم على القلوب بلياقته وصفاته العالية إستفاد في سلوك سبيل التقدّم من مساعدة أفراد

المجتمع، وملك بذلك مفاتيح الموفقيّة والنجاح. إن أصحاب الخير كالمصابيح في المجتمع يتقدّمون بين أيدي الناس فيقودون أفكارهم ويؤثّرون في أخلاقهم تأثيراً عميقاً، ولكنّ الحسد يعلن بوجهه الكريه فناء الصّفات الخيّرة والملكات الفاضلة، ويحول بين أفراد المجتمع فلا يدع أن يجد الشّخص في قلوب معاشريه موقعاً ذا أهميّة، ولا أن يرى بعينه كوكب المحبّة يسطع في سماء حياته، وبالتالي يحرمه الحسد عن التنعّم بنعمة التعاون ومزايا المساعدة. لكن الحسود أيضاً باظهاره الحسد باللسان أو اليد يعري رجسه ويعلنه للملأ، فيجرّ بذلك على نفسه أمواج السخط والكراهيّة العامّة، وان الإضطراب المحسوس والحزن العميق الذي يجرّه بالحسد على نفسه يضغط روحه، وهو بذلك يوقد ناراً تتأجّج لإحراق روحه الحبيبة.

وإن السبب في إحتراق روح الحسود بالقلب والإضطراب النفسيّ شيء واضح، إذ أن النِعم الإلهية تتّسع على خلاف ما يتوقّع، فهو لا يزال لذلك في حزن وألم مخيّم على فؤاده. إن الحسد كالعاصفة الشديدة تهبّ فتقلع شجرة الفضائل من الجذور والأعراق، بحيث لا يجد الحسود في نفسه أيّ وازع وجدانيّ عن إرتكاب ايّة جريمة مهما كانت.

حينما رأى قابيل أنّ قربان هابيل قد قبل، بينما لم يتقبّل قربانه، حسَده

حتى صمّم على قتله وقتله خيانة، أنشب الحسد مخالبه على قلبه فسلبه عاطفة الأخوّة والإنسانيّة، فحطّم بالصخرة رأس أخيه وخضّب جسده المقدّس بدمائه لا لشيء إلاّ لأنه أخلص في نيّته وكان طاهراً في عمله، لقد شهد العالم الهادئ في ذلك العهد أولى ضحايا الحسد على أثر جناية عظيمة مهوّلة وقعت على يد ولد آدم عليه السلام. ولمّا فعل الحسد ما فعل، ندم من عمله الشنيع ولكن لم ينفعه النّدم، بل لازال يتألّم من وخز ضميره ما بقي على قيد الحياة. ولو كان قد تطرّق الفكر الصحيح الواقعيّ إلى خاطره لكان يفتّش عن سبب حرمانه عن الفيوضات الإلهيّة في نفسه قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[1].

يقول أحد العلماء: «إن الحسد من أخطر عواطف الإنسان، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يحسبه ألدّ أعدائه في سبيل سعادته ويسعى في دحضه ودفعه».

انه إذا فشا الحسد بين أفراد المجتمع شاعت فيهم مظاهر كثيرة من المشاجرات المختلفة، وفي مجتمع كهذا مليء بالآلآم والمحن يصبح كل واحد منهم بدل أن يكون مكمّلاً لنقائص الآخرين ومساهماً في تحسين أوضاعهم، يكون سداً أمام سعادتهم وتقدّمهم في الحياة، وإنّ

(١) المائدة ٢٧.

حسد هؤلاء سيمنع من أيّ إصلاح بينهم، وبالتالي يتفرّط روح النظام والراحة والطمأنينة، وينتهي الأمر بهم إلى الفناء والدمار على ما هم فيه من الحضارة والعمران.

إن الدين عزيزتي القارئة ينتقد الحسد، قال سبحانه في قرآنه الكريم: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1].

إن الإنسان وإن كان مجبولاً على حبّ الذات وجلب النفع إليها، يجب عليه أن لا يعمل وفق غريزته هذه إلاّ في حدود القوانين الشرعيّة، ومنطق العقل السليم، ومصالح المجتمع. وعلى هذا فإذا أنعم الله على أحد بنعمة فليس لأحد أن يتجاوز عليه فيسلب منه تلك النعمة، ليسكن بذلك حسده أو بدافع جلب المنفعة، بل يجب عليه أن يسلك إلى آماله طريقاً صحيحاً ومعقولاً في الحياة، فإنه يجب علينا أن نسعى في سبيل آمالنا كما أرشدنا الله: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[2]، وأن نطلب من فضله.

وإن من عوامل نشوء الحسد أيضاً سوء التربية في البيت، فإن الأبوين إذا أحبّا أحد أولادهما أكثر من غيره وخصصاه بعطفهما

(١) النساء ٣٢.

(٢) النجم ٣٩.

وحنانهما وحرما الآخرين من عواطفهما، أوجدا فيهم عقدة الحقارة والتمرّد، وان حسد كثير من الناس انما يكون ناشئاً من هنا باعثاً لهم على الشقاء والتعاسة. وهكذا يكون الأمر فيما إذا كانت أسس الحكم في المجتمع مبنيّة على غير العدل والإنصاف، وقد منع رسول اللهﷺ المسلمين من الإنحراف عن العدل بين الأولاد، كي يمنع من تلوثّهم بآثام الحسد فالرذائل الاخرى، فقالﷺ: ((**ساووا بين أولادكم في العطية**)).

عزيزتي القارئة بمقولة نبيناﷺ تنتهي حلقة هذا اليوم من درر الأخلاق. وقد قدمنا لكن مجموعة من الدرر الثمينة في حلقاتنا السابقة، متمنين لنا ولكن الخير والفائدة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس

الحلقة الأولى	
الحكمة العملية والنظرية	٥
الحلقة الثانية	
تزكية النفس	١١
الحلقة الثالثة	
الخروج من شحّ الذات	٢٥
الحلقة الرابعة	
نور المحبة في آفاق الحياة	٣٥
الحلقة الخامسة	
سوء الخُلق ينفر عنك الناس	٤٣
الحلقة السادسة	
النظرة المتفائلة وحُسن الظن	٥١
الحلقة السابعة	
النظرة المتشائمة وسوء الظن	٥٩
الحلقة الثامنة	
الكذب	٦٩

الحلقة التاسعة
النفاق ٧٧
الحلقة العاشرة
أضرار الغيبة في المجتمع ٨٥
الحلقة الحادية عشرة
الغفلة عن النفس ٩٥
الحلقة الثانية عشرة
الحسد ١٠٣